

العذرَاء مَرِيَمَ

وميلاد المسيح

عيسى عليه السلام

بين القرآن والإنجيل

تأليف

فتحي فوزي عبد المعطي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ قَالَتِ

الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنُيْ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي

وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

قرآن كريم سورة عمران الآيتان ٤٢ ، ٤٣

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتِ

عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينِ ﴿١٢﴾

قرآن كريم سورة التحريم الآية ١٢

«أَفْضَلُ النِّسَاءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»

حديث شريف

«السلام عليك يا مملئنة نعمة الرب معك مباركة أنت

من النساء يا مريم»

الحيل لوقا الفصل الأول المقرة ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتفق جميع المسلمين والمسيحيين على طهارة العذراء مريم أم المسيح عيسى عليه السلام ... بل لعل القرآن الكريم قد اختصها بمزيد من التمجيد وفضلها على كثير من نساء العالمين .

ولقد كان ميلاد المسيح عيسى عليه السلام من غير أب معجزة فريدة أجراها الله على يد مريم ليكون دليلا على قدرة الله ومشيئته .
وفي هذا الكتاب تدور أحداث قصة ميلاد العذراء مريم من أبوين كبيرين في السن وميلاد المسيح عيسى عليه السلام .

- وقد راعيت في سرد أحداث القصة عدة إعتبارات هي :
- ١ - الرجوع إلى القرآن الكريم وما يتفق معه من الأنجيل الأربعة .
 - ٢ - دراسة للمسرح الذى دارت عليه أحداث القصة من الناحيتين التاريخية والسياسية وربط هذه الظروف فى كل من فلسطين حيث ولد المسيح وفى مصر حيث عاش بها بعض سنى حياته .
 - ٣ - توضيح قدرة الرب فى ولادة مريم والمسيح وما صاحب ذلك من أحداث ومعجزات .

ولعلى بهذا أكون قد وفقت والله ولى التوفيق

المؤلف / فتحى فوزى عبد المعطى

(١)

كان الفجر يسرع بخطاه إلى العالم .. يطارد بنوره ظلام الليل ..
يعلن عن ميلاد يوم جديد .. يفرش ضوءه على سفوح أرض حبرون
في فلسطين ، فيلفها وما حولها بستارة فضية ندية .. تبدو من خلالها
صور كثيرة رائعة تنطق بقدرة الرب وحكمته .. فما هي إلا
لحظات .. حتى كانت الشمس تشرق في الأفق .. تبتسم للعالم في
إشراق .. تلقى بأشعتها على تلك الدور المتناثرة .. توقظ العالم من
سباته ، لينهض الناس من نومهم كي يبدأوا معها رحلة الحياة التي
اعتادوها كل يوم .. واستيقظت مع من إستيقظ من أهل حبرون ..
حنة بنت فاقد .. واحدة من نساء بنى اسرائيل .. فأيقظت معها
جارتها .. ونهضتا سويا تطالعان في السماء وجه النهار .. وتنظران
الشمس وهي تكبر في الأفق .

كانت حنة في الخمسين من عمرها أو تزيد .. عرفت بين قومها
بالإيمان .. سعيدة بزوجها عمران بن ماثان .. أحد فقهاء قومه ..
لكن شيئا ما يقلق حنة وزوجها .. يمزق بعضا من أستار هذه السعادة
التي نسجا معا خيوطها من الحب والإيمان .. فكم تحن نفسيهما إلى
ابن يملأ عليهما حياتهما .. يتفيا بظلال حنانهما .. يرث مكانة أبيه ..
فيكون واحدا من كهنة الهيكل .. إلا أن الأمل قد ضاع .. أضاعته
الأيام والسنون ، فقد مضى عليهما الزمن طويلا ، ولم يحقق لهما
الرب أملهما ، وكاد عمران .. وقد أصابه الكبر .. أن يقتنع بما شاء

له الرب من سعادة بين أهله وزوجه .. لكن حنة ما تزال في لطفة
إلى تحقيق الأمل .. تتذكره كلما أحست بعاطفة الأمومة تهدد
قلبها .. أو كلما شعرت بنظرات نساء قومها كامرأة عاقر .. لم تكف
عن الدعاء لربها .. تناديه :

- رباه .. إلهي وإله آبائي .. باركني واستجب لدعائي ، وامنحني
ولدا تفر به عيني .

حتى كان ذلك اليوم .. حين إستيقظت حنة وجاريتها وراحتا
تتابعان قرص الشمس وهو يكبر في الأفق .. في ذلك اليوم - لأمر
شاه الرب - أحست حنة بحنين يدفعها إلى أن تمضي بعيدا عن
ديارها .. إلى تلك الحقول المحيطة بأرض حبرون .. لذلك أسرعت
وجاريتها واتخذتا طريقهما بعيدا .. عليهما تستمتعان بنسمات الصباح
النقية ، وتستنشقان عبير الأزهار الندية .. تركبها تلك الحداثات المتناثرة
التي عرفت بها أرض حبرون .

ورأى الصبح حين أسفر .. إمرأتين تمضيان بعيدا عن ديارهما .
كان جميلا كل ما يحيط بحنة .. فالهواء رقيق وحببات الندى كاللؤلؤ
المنثور فوق الأعشاب .. ونبت القمح يشق طريقه خلال الأرض التي
رطبها الندى .

لم تدر حنة كم من الوقت مضى عليها وهي تطالع سطورا لقدرة
الرب .. فإنها لكذلك .. إذ أبصرت فوق شجرة .. طائرا يزق
صغاره .. يطعمهم بمنقاره ، والصغار فرحي بأمهم .. سعداء
بحنانها .. يصفقون بأجنحتهم . هنالك تذكرت حنة أمرها ،

وتحركت في نفسها عاطفة الأمومة ، وتمنت لو منحها الرب طفلا ..
تسعد به كما تسد هذه الأم بفراخها ، فراحت تدعوا ربها :

- رباه .. إله آبائي .. باركني .. إمنحني ولدا تقر به عيني ..
رباه .. جلت قدرتك .. منحت هذا الطائر عطفه على فراخه .. فهلا
يارب منحتني إبنًا أفيض عليه من عطفى وحناني ..

طار الطائر من عشه بعد أن خلف وراءه صغاره سعيدة ..
ومضت حنة تتابع هذا الطائر وهو يتعد ، فذكرت زوجها عمران ،
وكان قد طال به المقام في البرية .. صائما لربه عابداً .. هكذا إعتاد
أن يفعل ، ومرت بذهنها صورته ، فراحت تسائل نفسها .. أتراه
ما زال على عهده .. يذكرها عند ربه في صلاته وصومه !! أتراه دائم
الدعاء لربه .. أم تراه قد يئس من تحقيق الأمل بعد أن أصابه
الكبر !!؟

وأقبلت الجارية على سيدتها ، فلاحظت آثار دموع ما تزال تترقرق
في عينيها ، فأدركت أن حنة تعاني أمرا ما .. تجتسبه في صدرها ،
وكانت الجارية تعرف من أمر سيدتها شغفها بالولد ، فقالت وهي
تحاول أن ترسم على شفيتها ابتسامة ما :

- ما أحسبك إلا أنك تفكرين في أمر سيدى ، فقد مضى على
فراقكما طويلا ، ولكنه عائد اليوم أو غدا فيما أعتقد فهونى عليك
ياسيدتى .

قالت حنة ، وقد أيقظتها هذه الكلمات من تفكيرها :

- لا .. فما حزنك اليوم لفراق عمران وكيف أحزن .. وأنا أعلم أنه تركنى ؛ ليسعى إلى ربه .. لعله عائد اليوم أو غدا .

- فأى شيء يشغلك ياسيدتى ؟! وهذا الكون من حولنا يملأ النفس بهجة وسعادة ...!!

- بل هناك أجمل من هذا يافتاه ..

- فأى جمال تعين ياسيدتى ؟

- ذلك الذى أيقظ فى نفسى شيئا .. آخر غير ما تتحدثين عنه .
-؟!

- هذه هى الحقيقية يا فتاة .. أحاول أن أنساها .. لكننى دائما أتذكرها .. تذكرنى بها عاطفتى كامرأة .. ذكرنى بها اليوم هذا الطائر ، وهو يرق صغاره .. ويلي أنا لقد عيرنى الناس بعقرى .. لم يمنحنى الرب الولد .. ويعلم الله أنى ما أئمت ، ولا فرطت فى حقه .

قالت الجارية وقد هزتها كلمات سيدتها :

- هوئى عليك يا سيدتى فالرب أرحم بك .

- إنما تمر الأيام .. وتتعاقب السنون .. وأخشى ما أخشاه أن أترك العالم كما جئت إليه .. شجرة بلا ثمر .. ما تليث أن تجتث ، فلا يبقى لها فى الوجود أثر !!

فمسحت الجارية آثار دموع سيدتها وهى تقول :

- فليباركك الرب ، كما بارك سارة زوج إبراهيم الخليل ، فمنحها إسحق بعد طول إنتظار .. بحق الرب أمسكى عن قلبك السخط ، وابعدى عنك اليأس ، ولتشرق فى نفسك الآمال ، واتجهى إلى ربك فأدعوه .

- فإن الدعاء هو عزائي .
- إلى وحق الرب ألمح في عيبك بارقة أمل .
- فهل يكرر الأمل يا فتاة ؟ وهل يمحو الله في العدم ما حرمسى إياه بالأمس .
- فأما الأمس فدعيه وشأنه ، وأما الغد ..
- لعله يكون أفضل .

كاد الحديث أن ينتهي بين حمة وجاريتها ، ولكن الجارية عادت تقول :

- بحق الرب يا سيدتى . هل تستمعين إلى رأى أراه ؟
- فإني مصعبة إليك ، فحدثيني بما شئت . فكم أشعر في كلماتك بلسما لمراح نفسى .. حدثيني يا فتاة ..

قلت الجارية ، وقد أسعدتها كلمات سيدتها :

- فإن الذى غرس في قلبك الآمال .. لا يعجز أن يتعهدا بعائته .. حتى يحققها لك ثمرة في بصلك .. ثم جيبا في أحشائك ثم طملا تفر به عيبك ، فهلا تعاهدين الرب .. إن مسحك الولد .. أن تتفرجى به إليه .. تنذريه لخدمة الهيكل ؟!

فصاحت حمة فرحة :

- أعاهد الرب على ذلك .
- هيا يا سيدتى ، فصلى لرب وادعيه ، وعاهديه أن تمسحيه الولد ؛ اعترافا بفضله .

وبرئت هذه الكلمات في نفس حمة كما ترون قصرات البدى على

الرهرة الديلة .. فأى سعادة أن تررق بالولد ، وتمنحه الخدمة البيت .. ليكون واحدا من سدته . راعيا لدين الله ، وأسرعت حنة تصلى لربها ، وقد رفعت يديها متوسلة داعية :

- رباه .. فأنى أعاهدك أن يكون ما تمنحه لى محررا لهيكلك المقدس .. تشهد على هذه الشجرة .. وهذا اهواء من حولى .. وهذه السماء من فوق .. فتقبل يارب نذرى !!

فما انتهت من كلماتها .. حتى حيل إليها أن هاتفها يهتف بها . أن الرب قد استجاب لصلاتها وأنه يحقق آمالها .

وكان النهار قد أوشك على الرحيل .. وقرص الشمس يمضى عائدا إلى الأفق .. فمضت حنة وحاريتها عائدتين إلى ديارهما .. وسؤال يلح عليهما .. هل يحقق الرب دعاءهما !!؟



(٢)

أقبل عمران على زوجه حنة فإذا هي فرحة على غير عادتها .
وإذا تلك السحابة الكثيفة من الحزن التي كانت تعلو حبيبها . قد
تلاشت حلف إبتسامة مصيئة تكبر على ثعربها .. حتى لتكاد تملأ
وجهها .

وأقبلت حنة على زوجها فرحة بمقدمه بعد طول غياب ..
مشرقة المنجى .. يطلق وجهها بكل ما يملأ نفسها من فرحة وسعادة ..
وطرت هي على وجهه صورة لم تعهدها .. صورة حنة رائعة ..
لم تستطع رمال البرية التي عفرته أن تحجبها عن وجهه ، فبدأ
مشرقاً .. بل أكثر ما يكون إشراقاً .

قالت حنة لزوجها ، والكلمات تقصر على شفيتها :

- أرايت يا عمران .. كم يسعد الإنسان حين يرتوى الماء الرلال بعد
ظماً طويلاً ؟

فأجابها زوجها ضاحكاً :

وكم يفرح العريب حين يثوب إلى داره بعد طول فراق ؟!

- الرب راعينا بحفظك لي .

وكان الحديث بينهما طويلاً ممتعاً .. أنس كل منهما إلى الآخر أنس
الحبيب لحبيه ، والرفيق برفيقه ، وفرح كل منهما بصاحبه فرحاً ملاً
عنيهما لخصاتهما ، فأحسا بالسعادة تضيء كل ما حولهما ، وتشرق

في نفسيهما بالبهجة والمرحة . أتراه كان حين الروح لروحته . بعد
طول إفتراق !!.. أم تراها فرحة اللقاء ؟. أم تراها غير هذا وذاك ؟
وأحسست الحارية عما بين الرجل وزوجه .. فمضت بعيدا .. إلى
حيث تعد لهما الطعام . فما يفرد عمران بوجهه حتى قال ها .
والسعادة تهز كيانه :

- أنشري يا حبة .. لقد استجاب الرب لصلاتك . وتقبل دعائك .
ودهشت حبة لما يقول روحها ، ولم تكن دهشتها لأنها تذكر على
الرجل كلماته . ولكن دهشتها لأنها لم تكن أحيرته مما حدث لها
بالأمس .

.. ترى من ذا الذي أنبأه ؟

قالت حبة وما تزال علامات الدهشة ترسم على وجهها :
- كأنك تقرأ ما في نفسي يا عمران .
بل هي الحقيقة يا إبنة فاقود .. إنما أقرأ السعادة في عيبك .. بعد
أن قرأتها سطورا باضقة .. وسمعتها كلمات تهف في ..
- ما أحسب إلا أنك تبادلني مشاعري ... كدت اللحظة أن أحدثك
بحديث نفسي .
- فما أحسبك إلا صادقة . وما هوانف نفسك خيالات أوهام -
كما كان يتراءى لك في الماضي . لكنها الحقيقة رأيتها بعيني . نعم
يا إبنة فاقود .. هي الحقيقة سمعتها ورأيتها .

- !!؟

- أبشرى يا حنة .. لقد استجاب الرب دعائك وسيمنحك ما تصو
إليه نفسك .

قالت حنة وقد كبرت الدهشة على وجهها .

- فمن أنبأك بهذا ؟!

- أنبأني به ملاك الرب .. بهذا حدثنى .

- ملاك الرب ؟!

- هو كذلك بحق الرب .

- فحدثنى حديث ملاك الرب .. وما عهدتك إلا صادقا في
كلماتك .

قال عمران :

- لعلك تعمدين يا حنة أن اليوم . كان نهاية أيام الصوم للرب
فقاطعته حنة :

- إنما أحسب هذه الأيام واحدا بعد الآخر .. حتى لقد تطول لى ..
فلا أحسبها أربعين يوما .. بل أربعين عاما !!

- لا بأس ، فدعى الآن حديث قلبك ، واصتنى إلى . كان اليوم
هو آخر أيام صلاتى .. أحسست أنى عائد إليك .. تذكرتك ..
استعدت صورتك أمامى . خيل إلى أنك مارلت حزية من أجل
أمل يراودك .. تردد فى سمعى تلك الكلمات التى كنت أسمع
تنادى بها ربك . دعية أن يمحك الولد . كم كنت حرينا من
أجلتك . يعلم الرب أنى أشاطرك آمالك .. ولكن الرجال دائما
يحمون بعض آمالهم ، كما يحتسبون فى صدورهم كثيرا من آلامهم ..

من أجل هذا كله تذكرتك .يوم فدعوت الرب بكلمات بابعة من
إيمان به . من تلك الأبوة التى أحملها بين جوارحى .. دَعَوْتُهُ . فإذا
كلماتى تصل إليه .. وإذا النور يملأ كل ما حولى ، وصوت البشير
يقول لى :

يا عمران .. لقد أرسى الرب إبيتك ، لأبشرك بأنه قد سمع دعاءك
ودعاء روحك ، قم فامض إليها . وأحضرها أنها ستحمل بمشيئة
الرب . وسيكون حملها فى الوجود شأن يسرى ذكره على مدى
السنين والأيام ..

كانت حنة تستمع إلى كلمات روحها . كأنما تستمع إلى ترنيمة
من مرامير داوود .. أو إلى تراتيل الصلاة فى هيكل الرب .. وكـ
أُتلح ديك صدرها . فمضت هى الأخرى تحذث زوجها بما حدث
لها فى البرية وتبته بذرها للرب ..

وأقبلت الحارية . تقدم بظعام لسيدها وهى تستعيد أحداث
الأمس ، وعرفت من أمرها ما أسعدها . وهمت أن تتركهما .
لكن سيدتها استيقظت . لتشاركهما سعادتهما وأحاديثهما . وقصى
اثنائة بعصر الليل فى حديث طويل ممتع .. ملىء بشتى الموضوعات ..
لعلهم تحدثوا عن آياتهم وأحاديثهم وآمالهم . عن سارة امرأة إبراهيم
الخليل . حين وهبها الله إسحق .. بعد طول إنتظار .. عن يوسف
يوم حفظه الله من سوء ، وصرف عنه كيد إخوته ، ورفع أبويه
على العرش ، وخروا له سجدا .. عن موسى .. يوم أوحى الله إلى
أمه أن تضعه فى صندوق ، وتلقيه فى اليم ، ثم أتلح الرب صدرها

بعودته إليها . يرتضع الس من ثديها .. ويرتضع معه حب الأم
وحاسها بعد أن افتقدته .. ولعشهم أيضا تحدثوا فيما كان يتحدثون
فيه .. عن الأيام الخوالي .. أيام أن كان للدين قدسيته ومهابته .. لكن
الرومان قد نزعوا عن الشعب حرته ، وسلوه أمه .. سيطر الحكام
من الآدوميين ورجال هيرودس يلهون صهور القوم قسوة وظما
ومذلة .

وما بلغ الثلاثة من حديثهم إلى ذلك .. حتى قال عمران وهو
بتأهب إلى فراشه :

- فيمكن الرب أرحم بنا كما كان بالأمر رحيمًا بأجدادنا . نعل
القوم يلتمسون في تعاليم ربهم طريقًا يبعدهم عن طريق العواية ..
ويعيدهم إلى طاعة الرب .. إلههم .

وقالت حنة والحارية وهما تفترقان :

- أمين .



(٣)

أدركت امرأة عمران حلال بصعة أيام . أن الرب قد صدقها
ما عاهدها عليه على لسان ملاكه . وإذا أملها يكرى أحشائها يوما
بعد يوم . ولم يكن ذلك ليصرفها عن صلاتها بل ليزيدها إيمانا
بربها .. وتقربا إليه .. فقد كانت عاقرا .. حملت .. وحيدة إلا من
روحها .. فعدا ستعم بوليدها .. من أجل هذا مصت المرأة على
عهدا للرب .. شاكرة مصلية له .. وكان زوجها يشاركها الصلاة
حين تصلى .. ويشاركها الشكر حين تشكر .. ويتعهدا بالمزيد من
الرعاية والعطف والحب .

ولم تسر حنة ذكريات ذلك اليوم .. حين مصت مع الحارية إلى
الرية .. حيث الشجرة الوارفة .. والظائر الديرى يزق صغاره .. وهذا
اعتادت أن تذهب من حين لآخر إلى ذلك المكان .. وكثيرا ما كانت
تصطحب معها جاريتها . بل لعلها في مرة ما اصططحت معها
روحها فأرته تلك الذكريات ، وحدثته طويلا عنها . وكثيرا
ما كانت حنة تجلس تحت الشجرة تنظر إلى أعلاها .. كأنها تقرأ
على أعصائها سطورا من أيام حياتها .. تنطلع إليها . عليها ترى ذلك
الظائر حين يكون الصباح وهو يودع عشه وفراجه ، أو حين يكون
امساء وهو عائدا إلى صغاره .. يحو عنهم .. بهم الحب ويطعمهم
الحب .

وتتابعت أيام الحمل .. صافية كأحلى ما يكون الصفاء . سعيدة

كأحلى ما تكون السعادة ، مشرفة إشراقة الأمل ، وأخيراً يكرر ،
وهي تتمثله مع كل لحظة من لحظات حياته . طفلاً صغيراً يربو إليها
بظرفاته البريئة ، ثم تتحيلة وقد عدا صبياً في بيت الرب .. يدرس
التوراة ويتعلمها . ثم يمضي بها الخيال بعيداً . فتراه رجلاً يرعى
هيكل الرب . ويحمل مكة أبيه بين قومه .

استيقظت حبة ذات يوم . أيقظها صوت يهتف بها .

- يا حبة .. ستلدين أنتى .. وتسمينها مريم .

وبينما كانت حبة تمسح عن عينيها آثار النوم .. وتفتح عينيها على
نور النهار ، وقد بدا لها من حلال كوة ححرتها .. كان ذلك الصوت
ما يزال يتردد في مسامعها :

- سمها مريم .. مريم .. مريم .

قالت كمن تحدث نفسها :

لا بأس .. فلتكن مشيئة الرب .. إن شاء مسحى دكراً ، وإن
شاء أراد فكانت أنتى ..

حتى كان ذلك اليوم الأول من شهر بشنس .. حين أحست حبة
بعلامات الخاص فما هي إلا لحظات .. حتى وصعت جيبها ..
فاذا هي طفلة صغيرة .. مشرفة السا .. مسطحة الخدين .. ناضرة
كالريحانة . متلألئة ككوحه الربيع .. صافية كقطرات اسدى .. على
نعرها ابتسامة مصيئة . يسر لساظر إليها ، فيزداد بطراتها إيماناً .

استقبلت حبة ابنتها بلهفة الأم .. واحتضنتها بكل ما وهبها الله من

عطف .. فإذا إشرقة الأمومة تير نفسها .. فتشرق فيها الحب ..
وإذا هي تنظر إلى إبتها .. إلى عيبيها .. إلى وجهها .. إلى ابتسامتها ،
فحيل إليها أنها تنسم لها ، وإذا هي تحس كأن سمات رقيقة عذبة
تملأ صدرها .

لم ندر حنة كمن من اللحظات مرّت عيبيها ، وهي تختص
استها .. ذكريات كثيرة تستعيدها في ذهابها ، وحواطر عذبة تتوارد
عيبيها .. وتذكرت ذلك اليوم الذي قصعت فيه عهدًا على نفسها ..
يوم بذرت ما في بطنها محررا لخدمة الرب . لكنها اليوم قد ولدت
أنثى . ستكون فيما بعد فتاة . وليست فتى . امرأة وليست
رجلا . فهل تستطيع أن تفي بذرهما ؟ ألا تحث في وعد قطعته على
نفسها ، ويعلم الله كم كانت هي صادقة العهد ترى هل يقبل الرب
إبتها وفاء لبذرهما ؟!

قالت حنة :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ ۖ ﴾ (١)

وترقرقت في عيبيها دمعتان كبيرتان لم تسطع أن تمسكهما في
مقلنيها ، فاحدرتا على حديها ، فأسرعت تمسحهما في هدوء .. ربما
كانت دموع الفرح ، أو لعلها كانت دموع الخوف .. الخوف من
أن الرب لن يتقبل إبتها وبذرهما ، فما عهد القوم أن يقدموا الإناث

(١) سورة آل عمران الآية (٣٦)

لخدمة البيت ولكنها .. لا تملك من أمرها وأمر ابنتها غير ما شاءها
الرب .

قالت حبة وهي ما تزال تنطلع إلى وجه ابنتها :

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾^(١)

كانت الحارية تقف بجوار سيدتها تنظر إليها فتحس بما يتردد
في أعماقها .. بتلك الكلمات التي تتحرك على شفيتها .. فاستجمعت
شجاعتها وقالت .

- هل تكن مريم لك يا سيدتي عراء في وحدتك .. لعل الرب يقبلها
ملك ، وفاء بذكرك .. إنها وديعته التي استودعك إياها .. هديته
إليك . فليسمحها البركة لتكون بركة لك ولقومك .

فرفعت حبة رأسها إلى السماء وقالت :

﴿ وَإِنِّي أَعِيزُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٢)

وسكنت . سكنت حبة ، وما كان لها إلا أن تسكت ، فماد
تستطيع أن تقول .. ولكن بقي السؤال يلح عليها ترى هل يقبل
الرب بلورها .. إبنتها ؟

وحاءها صوت ملاك الرب يهتف بها .. يطمئنها .. يقول لها :

- يا حبة .. لقد استجاب الرب دعاءك .. تقبل هديتك .. تقبلها
بقول حسن وأنتها ثناء حسنا .

كان عمران قد قدم من الحارح ، فأقبل على روجه وابته ، فسعد
 هما كثيرا . وإن كانت نفس الحواطر قد حركت أفكاره . هل
 يتقبل الرب مدره .. ابته ؟ فمضى إلى بيت الرب .. يقدم له
 القرابين .. ثم نظر فإذا تاح نوراني يهبط من السماء ، فيغمر بصوئه
 كل ما حوله .. فعلم أن الرب قد قبل قربانه .
 ومضت الأيام ..

ومريم تترعرع في كنف والديها . تأخذ مكانها في الحياة .
 كرهرة صغيرة .. تعلو عصا أحصر من أعصاب الحياة .. تحب من
 عطف والديها وحاسها بقدر ما ملأت هي عليهما حياتهما إشراقا
 وبهجة .

لكن الرب بمشيئة يعمها .. ولقدّر كان قد قدره في سجلات
 الخلود . شاء أن يحطف الموت عمران . فلحق بآبائه وأجداده ..
 إلى حيث يجد له مكانا مع الصديقين والسيين

وحررت حمة ما شاء الله ها أن تحزن .. حتى كاد الحزن أن يجثث
 معه سعادتها .. لولا تلك الإبتسامة المشرقة التي كانت تطالعها دائما
 على وجه الصغيرة مريم ، وذلك النور الإلهي الذي يشع من عينيها
 الصافيتين .. فتثوب إليها آمالها ، وتسترجع بعضا من سعادتها ،
 وتنسى آلامها ، وتستشعر في نفسها أمما ، وتحس في ذلك كله ..
 عراء لها عن زوجها .

ولم يكن عمران قد ترك لروحه واسته من متع الحياة ما يكفيهما

في حياتهما . وإذا كان ذلك أمرا هيبا بالنسبة للأم ، فمادام يكون بالنسبة لمريم .. الطفلة الصغيرة التي كانت ما تزال تستقبل الحياة وتشق طريقها بخطوات بطيئة وثيدة .. هي بلا شك في أمس الحاجة إلى من يتولاها برعايته .. يشنها تشئة القديسين الصالحين ، لتصبح فيما بعد من سدة الهيكل .. كم هي في حاجة إلى من يتعهدا .. يتعهد بها عن نزوات الهوى ، ومماسد اليهودية التي انتشرت في ذلك الوقت .

لشد ما كانت حنة دائمة التفكير في هذا الأمر . لعلها تذكرت فيما كانت تتذكره وهي تجتر أفكارها . صورة ذلك «طائر الدي» رآته ذات يوم يرق صغاره .. أترأه ما يراى على عهده مع فراحه .. أم ترأه قد عصفت به الحياة .. مات ..

أسئلة كثيرة كانت تتصارع في ذهن حنة .. ولكن سؤالا واحدا كان دائم الإلحاح عليها .. ترى هل يقبض الرب لمريم من سيكون لها حير عوض عن أبيها .. فيتعهدا ويرعاها . لتستطيع فيما بعد أن تمضى في طريق الحياة ؟



(٤)

انتهى القوم من صلاتهم ، وما تزال رائحة الحور ، تعطر هيكلك
لرب شداها ، وينسرب عطرها إلى الخارج حيث جلس بعض
اليهود من رجال الدين .. يصونون لهمهم يقدمون القرايين لإلههم ..
يسألونه السعادة في الدنيا ، والحة في الآخرة .

كان القوم في ذلك اليوم قد انتهوا من صلاتهم .. فجلسوا
يتحدثون فيما بينهم . يتدارسون شؤون دينهم ، وما أصاب قومهم
من صلال ، وما يفعله الرومان بشعب فلسطين .

وطال بانقوم الحديث حينا في همس ، وحينا آخر في ثورة ..

كانوا يتحدثون عن هؤلاء القوم من رجال الدين .. الذين ياعوا
أنفسهم للرومان بثمان بحس .. دراهم معدودات .. يأخذونها من
سادتهم مقابل سكوتهم عن هذه الماسد ، وتطرق الحديث بالقوم عن
اقتراب موعد ظهور نبي جديد .. يخلص الناس مما هم فيه من ظلم .

فيما انقوم كذلك .. وصلت إلى مسامعهم أصوات عذبة ..
كلمات حلوة .. فيها تمجيد للرب ، تشددا فتيات في صفاء وبقاء ،
واقتربت الأصوات ، كن فتيات صغيرات .. يتسمن في إشراق ..
في عيونهن تلمع آمال حنة .. كن مشرقا كوجه الربيع .. على
شفاههن ابتسامات مصيئة .. كن في موكب رائع تمشين في خطوات
فساح ، مقبلات على القوم .. مصرفات إلى أعاليهن .. كن يحملن

أعصان الرينون في أيديهن . يتحلين بعقود من الأرهار على صدورهن . كانت تتقدمهن سيدة قد ابتعدت بها الأيام عن خريف عمرها .. ومن ورائها الفتيات الصغيرات . يسرعن جميعا إلى بيت الرب ، والمرأة جادة في الطريق .. آحدة بيد طفلة صغيرة يتهلل وجهها إشراقا وورا .

قال أحد الرجال وهو ينظر إلى الموكب امقبل عليهم .
ما أراه فألا حسا . صوت رقيق ، كلمات عذبة ، وفتيات مشرقا .. ولكن .. ما أمر هذه المرأة القادمة معهم ؟!!
قال الآخر :

أتعني تلك التي تمسك بيدها هذه الظملة الملائكية ؟
وقال الثالث :

- كأنما هي تسعى بائنتها إلى عرسها !!
وقال الرابع :

- وحق الرب .. إنها حبة بيت فاقود .. روح عمران .
فرفع زكريا عينيه الواهتين ، وقد أيقظته كلمات صاحبه .. ثم نظر فيمن كن مقبلات . فإذا حبة تسرع الخطا .. تسبق الموكب .
قال زكريا كمن يحدث نفسه :
- ترى ما أمرها ؟! أتراها جاءت إلى بيت الرب تذكر عبده زوجها .. وتصل من أجله ؟!!

فما هي إلا لحظات .. حتى كان الموكب قد وصل إلى حيث يجلس الرجال من كهنة اليهود

قالت حنة وهى تدفع إليهم مريم فى حنان .
- إنها مريم .. وهنتها للرب .. حالصة له ، فبيكن منكم من يكملها .

أقبل الرجال على مريم .. وكل منهم تشرق فى نفسه إشراقات الأبوة . كل منهم يمتنى نفسه أن يكون راعيًا لها ، وكانت مريم تنظر إليهم ببطرات نقية ظاهرة .. تميص صماء وإشراقا ، فتكون عليهم بردا وسلاما .

تقدمت مريم نحو النجوم ، وكان عطر السحور ما يزال يدكى الهواء حولهم ، وهم يظفرون إليها ... طفلة صغيرة ، لم تتخط عامها الثالث .. كم هى جميلة حقًا .. لكنها - فيما يبدو على وجهها - راصية .. كأنما تحس فى ذلك طريقا حديدا لم تسلكه غيرها من بنات قومها .. أليست هى فادمة اليوم لتستقر فى بيت الرب !!

واختلف النجوم .. أيهم يكفل مريم ؟ كل يطمع فى أن يحظى بركتها ، وهذا الفيض الورى الذى يشرق به حبسها .

قال أحدهم :

- لقد كان أبوها إماما لنا .. كان رحل فصل وعسم ، فهذه الطملة وديعة لنا .. أمانة فى أعناقنا . ذكرى طيبة من ذكرياته ، وهى دى أمها جاءت بها اليوم تستودعها بيت الرب .

قال ذكرها بن برحيا .

- فأنا أحق بها فتكر في كفالتى .. في رعاية روحتى . إن الرب لم يسحبا الولد .. فهلا تركتم لي شرف كفالتها ؟!

وقال آخر :

- بل لعل أحق بها .. فقد كان أبوها صديقا لي ، وكانت له على نعم كثيرة ، وكم تسعد روحي حين تشاركنا مريم حياتنا ، فتكون أختا لأبائى وبنائى . وليكن لها مثلهم نصيب من المحبة والعطف .

وقال شاعول .. ذلك انكاهن الصغير ذو اللحية السوداء :

- ربما كتبنا على صواب ، فقد تكون قرينتك يا زكريا .. وقد تكون ابنة صديقك يا أبيعارر ، ولككما سينا أنها هدية إلى بيت الرب ، وأن الرب هو الذى يحكم فيمن يكون أحق بكفالتها ، فوالله إنى لأحد في نظراتها أمرا لم أعهد في غيرها من فتيات قومها .. فرب يختار لها من يشاء ولقنرغ عنها لرى أيا أحق بكفالتها - وكبف السبيل إلى ذلك ، والوقت ليس وقت صلاة .

فرد آخر يقول :

- هذه أقلاما ، فليكتب كل منا اسمه على قلمه ، ثم يلقى بها في هذا الماء المقدس فمن طاف قلمه .. كانت مريم في كفالته .

بينما راح القوم يكتبون أسماءهم على أقلامهم .. كان كل منهم يمسى نفسه ، وأسرع الرجال يتقون بأقلامهم في ماء النهر .. وكم كان مطرا رائعا حقا شهده الناس في ذلك اليوم . وكانت حملة حقا تنك المشاعر التى تنطق بها وحوه الرجار والفتيات ، واللحصات تمضى بصيفة حيا كما حسنها العصى سريعة كما حبل لأحرين ،

واحتفت الأقلام في الهر . واحدا بعد الآخر .. احتفت إلا
واحدا .. ترى من يكون صاحبه !!؟ ثم دوت صيحة أحد الرجال
وهو يمد يده إلى صفحة الماء ، يلتقط ذلك القلم الطافي وهو يصيح :
- إنه .. قسم زكريا !!

وهتف الناس :

- ياله من شرف آثرك الرب به يا زكريا !!

وهتف آخرون :

- بل هي البركة شاء لها الرب أن تحل في بيتك .

فأجابه زكريا وهو يلوح بيديه في فرح :

- ولعلها فاتحة خير على وعلى زوجي .

وحمدت حنة للرب حسن اختياره . فلتكن مريم عوصا
لأليصابات .. ولتكن سبوى لزوجها .



(٥)

عاشت مريم في بيت ركريا .. تنعم بحبانه وحنان روجه ، وتجد في رؤية أمها من حين لآخر فرحة اللقاء وسعادة الأمومة . حتى شاء الله أن تلحق حنة بروحها ، ولم تكن مريم جاورت الثامنة من عمرها ، وحررت مريم لفراق أمها .. لكنها مشيئة الله .

وكبرت مريم ، ونما عودها ، وكانت قد تركت بيت ركريا إلى بيت الرب .. ترعى شئونه .. هكذا تفتحت عيناها في أول إشراقة حياتها على نور الإيمان . بصرىء جواب نفسها .. وكم طربت وهي تنسم بسمات الحياة .. معطرة بأريج البحور يبعث من هيكل الرب . ومع كل يوم .. كانت تتمتع عيناها على مريد من آيات خالقها ، ودليل قدرته ووجوده .

فهذه الشمس تشرق في السماء كل يوم .. تمنح العالم الدفء والور ، وتحتفي بحر النهار ، ليحلفها انقمر في حراسه الكون ، ويمسحه من الضياء بقدر ما وهبه الله .. يهرشه على العالم ، فيكسر به ظلام الليل .

وهذه الجيوم المتناثرة في السماء .. تلقى على العالم بصيصا من نورها .. حين يعتذر القمر عن الظهور ، فتمرق بصورتها أستار الليل الخالئ ، فما أبدع صنع الله وما أحكمه !!

وهذا الكون بكل ما فيه . تمتد إليه يد الرب .. تحركه . تنبه الحياة . أو تمسك عنه الحركة حين يشاء الله .. ومريم الطاهرة ..

سلسلة العنقاء .. وحميدة لأسياء ، وهبة الله ، إنها ليست كفتيات قومها . لقد شأت غير شأتهم .. إن لها فكرا واعيا ، وقسا مملوءا بالحب .. إنها أبعد ما تكون عن أوهام الدنيا ودس الحياة .

وانحدت مريم من محراب الرب مكاثا تهذا إليه .. تاجيه .. تصلى له عابدة . قانتة . ساحدة . شاكرة .. وكان الرب بها كريما .. وكان ركريا يدخل عليا المحراب ، فيسعد بصورتها وهي بين يدي الله ، فيطمش إلى أنه صدق ما عاهد الرب عليه . واستطاع أن يصل بمريم إلى مصاف القديسين والصالحين .

وكان ركريا يدخل على مريم في محرابها يسألها : إن كانت بحاجة إلى راد نقيه به حياتها ، فتشير مريم إلى ما عندها من خير كثير ، وطعام وفير ، وفاكهة ناصحة ، فيهتف بها ركريا وهو في دهشة من أمرها :

﴿ يَمْرُومُ أَنِّي لَلرَّبِّ هَذَا ﴾^(١)

فتجيبه وكلها ثقة في ربها :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢)

نعم يا مريم .. إن الله يرزق من يشاء .. من يراه أهلا برزقه .. شاكرًا له فصله ، وأنت يا مريم من هؤلاء الذين يشكرون ربهم ، فيكثر الرب عليك نعمه ، وليجعل منك بركة لقومك ، وليكن لك في الوجود آية .. آية من الله .

(١) و (٢) سورة آل عمران الآية (٣٦)

(٦)

مسح الريح يمينه على وجه الكون ، فاحصرت الأعصاب وحمّت
البراعم ، وأورقت الأشجار ، وامتلأت نفوس الناس بالأمل .

وأشرق صباح ذلك اليوم من أيام شهر مارس .. فاستيقظت مريم
مبكرة كعادتها .. ثم نظرت من حلال كوة بيت الرب إلى الأفق ..
فأحسّت بسلمات الربيع تعشش صدرها ، وشعرت برائحة الهواء
القي .. يدكها أريج الزهر والورود ، ثم مدت بصرها إلى ما حول
بيت الرب .. إلى تلك الربا المحيطة به ، والسهول المنتشرة حوله ..

كانت الأرض قد كساها الربيع بثوب أحضر ، وما تزال حبات
البدى .. لم تستطع أشعة الشمس أن تديها بعد ، وانسمات الرقيقة
تعش بأوراق الأشجار . وإذا الكون كله يطلق بحلال الله وروعة
إبداعه .. هالك شعرت مريم ، بالسعادة ثلأ حبات نفسها .. هي
سعيدة في رحاب بيت الله ، سعيدة بتلك الصور الرائعة التي ترى
فيها بديع صنع الله . وسمعت مريم في ذلك اليوم هواتف نفسها ..
تدعوها من أعماقها إلى مناجاة ربها .. وكثيرا ما كانت تفعل ذلك ،
فانسحبت بعيدا عن البافدة إلى حيث تصلى لربها . تدعوه .

- رباه أنت راعبى ، فلا يعورنى شيء إلا رضاك ، ولا أجد لى
ملحاً ألود به إلا ما أوردتنى إليه .. رباه .. مصى القوم بعيدا
عك .. نسوا أنك إلههم .. فيارب .. بحقك .. بحق هذا الكون

الدى أشرق اليوم بقدرتك . ومسحت فيه الطبيعة يقطنها بعد طول
 رقاد .. بحث يارب .. أعد الصوم إلى حظيرة قدسك ، كما أعدت
 إلى تلك الأشجار أوراقها . أعرس في قلوبهم الأمل . إمسح عن
 قلوبهم سطور الحقد التي سطرتها ، الأحداث على صدورهم ، كما
 مسحت بقدرتك عبي وجه الضيعة ، فأشرق حمالا وساء .. ألهمهم
 يا رب الرشاد .. علهم أن يראوا من الشيطان ، ويلجئوا إليك .

فما ارتفعت الشمس قليلا في ذلك اليوم .. حتى كان زكريا قد
 أقبل عليها كعادته ، يزورها ليطمئن عليها ، وكان يرافقه أليعازر ..
 واحد من رجال الدين ، فما بلغها . حتى سمعا نداءها لربها ..
 فجلسا على غير بعيد منها . حتى تنتهى من صلاتها ، فيسألانها
 أمرها .. فيما تسلكه في غدها .

بيما كانت مريم في صلاتها . راح أليعازر وزكريا يتحادثان في
 ذلك الأمر ، قال أليعازر لصاحبه :

انظر إليها يا زكريا .. هذه هالة من نور إلهي تحيط بها ، وفيض
 من الإشراق يعمرها ، ونور الإيمان يشع به وجهها .. كم هي
 جميلة ..!!

قال زكريا :

- لو علمت من أمرها ما أعلم يا أليعازر . لأدركت المرید من
 حقيقة هذه الفتاة ، وأمت أن لها في الوجود شأنًا . أليست هي
 ابنة عمران وحفيدة داود وربة بيت الرب ؟!
 .. كم هي مشرقة يا زكريا . لعل في قلبها اليوم إشراقا نجب . أتراها

عارمة على الترحيل عن بيت الرب . وقد بيعت من العمر مسع
الفتيات ؟ أم عليها مستقى معققة به . أم به الحب يملأ قلبها لغنى
من بى قومها . يشاركها الحياة ، ويعمان بالسعادة معا ؟
قال زكريا :

ما أحسب إلا أنها قد آلت على نفسها أن تقيم هنا . لا تروح بيت
الرب .. فذرت نفسها لخدمته .

- بل لعلها تفصل نفس الطريق الى تتجدها نصيات من سى
حسها . أن تصبح روحه نهداً بخوار روحها .

تعى يا أليعازر أن تصبح مريم أمًا . بدد السنين والنيات ؟
ما أحسب ذلك ، وما أعظم من أمر مريم إلا إنها مقيمة ها هنا ،
وما يستطيع أحد أن يحسها على ما تكرهه

وقطع حديثهما مقدم يوسا أحد الكهنة من شيوخ القوم وكانت
مريم ما تراه في صلاتها ، فطر إليها يوسا نظرة ملؤها التقدير ، ثم
جلس يشارك زميله الحديث .

قال يوسا :

إعما أمر هذه الفتاة . يحركه الرب بمشيئته .. كان ذلك أمرها
بالأمس ، وما أحسب أن أمرها اليوم وعد ، لا بمشيئة الرب
لا يؤامر فيه أحد ، ولا يتصرف فيه كاهن .

قال أليعازر ، وكأنه مصرّ على رأيه :

- لكنها ، وقد احتارت في رحمة الحياة شوصها الأول . وها هي

دى اليوم فتاة فى بصرة اصبا وشباب . وما أحسب إلا أنها ترو
اليوم بطبيعتها كفتاة فى تلك الحياة التى تحياها النساء . شأنها فى
ذلك شأن أمها وأترابها .

قال يوسا :

- داك رأيك .. أما نحن ، فلا نمث من أمر هذه الفتاة إلا أن نتركها
ومشيئة الرب .. يصرفها كيفما شاء .

وطال الحديث بالقوم ، وتكاثر عددهم ، وارتفع الصحن ،
وامتلأ بيت الرب بالكثير من رجال الدين جاءوا على عادتهم
يتدارسون أمور دينهم لكن حديث اليوم أساهم ما اعتادوا عليه
فمضوا جميعا يتناقشون فى أمر مريم .. كل يقول رأيه ، وكل يسأل
نفسه . ماذا يكون مصير مريم ؟ وأي طريق تسلكه ؟!

كانت مريم قد إنتهت من صلاتها ودعائها ، فما لبثت قليلا حتى
أقبل عليها زكريا ويوسا وبعض الكهنة ، فاركبوا لمريم صلاتها ،
وحمدا لها تقواها ، ثم قال أحدهم :

- يا مريم .. لقد بلغت من السن مبلغ النساء فى قومك .
وما عرفناك إلا الطاهرة البقية الصالحة المؤمنة .. وعصا طيا لشجرة
مباركة .. لقد رأينا أن نتحدث إليه اليوم فى أمر لا يملك أن يحملك
عليه .. لكنا نسألك . ولا نشق عيبك .. فإن طاب لك البقاء هنا
فى بيت الرب .. فهو أرحب بك .. تقيمى فيه ما شاء الله لك ، وإن
رأيت رأيا آخر .. فتكويين روحه لواحد من عشرين اصطفيناه لك

من الرجال ، تسعدين معه . وتسعيان معاً في الحياة .. وليكن أمركما
كما كان أمر الرجال والنساء من قَوْمِكَ .

فطرت مريم إلى الرجال بطرت استحياء وتساؤل ، وبدأ عليها
شيء من الحيرة .. لكنها ماذا تقول ، وكيف ترد على الرجال
سؤالهم ؟

كانت الشمس قد علت في السماء .. وملأت ردهات بيت الرب
ببورها .. فأصابت بصوئها وجه مريم . هذا أكثر ما يكون إشراقاً
وسهاء وهي تقول :

إيماناً أمة الرب .. بدرتني أمي خدمة بيته .. وهأنذا بين
أيديكم .. فاحذروا لي من سبل الحياة ما يهديكم الرب إليه . فأني
سبيل أرادته لي الله .. رضيت به ومضيت فيه .

هناك . ردد انقوم إيماناً بمريم لقد تركت أمرها لله .. لكنهم ماذا
يفعلون ، وقد عدا الأمر في أيديهم ؟

أعادب هذه انصورة إلى أدهان الرجال ذلك اليوم البعيد مد
سوت .. يوم جاءت إليهم حنة تحمل مريم .. تسأهم كمالها .. كم
يدكر الرجال ذلك اليوم . وكأنما كانت هذه الذكريت أيسا هم
في أفكارهم .. وأيقظ القوم من تمكيرهم صوت ذلك الكاهن
العحوز يوسا وهو يقول :

- فمادا نحن فاعلون ؟

قال آحرون :

- نسأل الرب في شأنها .

- ولكن .. كيف الطريق إلى ذلك ؟

فالتفت رئيس الكهنة إلى زكريا ، وقال له :

- يا زكريا .. قد ائتمست الرب على مريم .. فأديت الأمانة ، فهل
فانس مسحك ، وصل للرب ، وإسأله ما أمر هذه الفتاة ؟ أنقياها
في هيكل .. أن يحبها إن ما تمصى إليها أتراسها ؟

شهد صبحى يوم الخامس والعشرين من مارس ذلك الجمع من
رجال الدين ، وقد اجتمعوا ينظرون أمر مريم .

وعاب زكريا .. يكهن في هيكل الرب . ثم عاد يقول :

- الرب شاء لمريم أن تمضى في الحياة زوجا وأما

مرة أخرى عدد سؤال ينبح على القوم .. من يكون روحا لمريم ،
وم يكتحل قلبها باحب لأحد . ترى من يكون صاحب مريم ..
روحها ؟

قال زكريا وهو يمسح على رأس مريم في حذر :

- أمرنى ملاك الرب أن أجمع شباب لقوم وشيوخهم . فليكتب
كل اسمه ، فمن اختاره الرب ظهرت علامة .

وفعل القوم .. فقد كان كثير منهم بطمع أن يصغر عمرهم كانوا
يرون فيها مطهرا من مظاهر الحمار ثلاثكى لدى يشرق في الشمس
بهجة وصرور .

وأمسك كل منهم بعض أكثر من ألفى شخص يستطرون
علامة ملاك الرب . - تنفون بالدعاء ، وزكريا يردد الأوسيد ..

حتى ظهر في سماء طائر أبيض جميل أحد يعرف على القوم
مخايبه ، كأما يشاركهم فرحتهم وسعادتهم .

وحط الطائر على إحدى العصي .. ترى من ذا الذي احتاره الرب
لمريم ؟ وكم كانت دهشة الشباب والرجال أن يكون شيخا قد باهر
الثمانين من عمره .. إنه يوسف النجار .



(٧)

قالت أليصابات والعبرات تخفها :

تصحبك السلامة يا مريم . حيث كان مسارك ، وحيث يكون
مقامك ..

ثم التفتت إلى يوسف ، وهي تمسح بيدها ما حائط وجهها من
دموع وقالت :
- لقد آثرك الرب مريم يا يوسف ، فترق بها ، وامسحها من
انتصامات السعادة ما يملأ حياتها .

وقال زكريا :

ولا تسوا أن ترسلوا إلينا رسلكم من الناصرة ، فإننا في حاجة
إلى من يحمل إلينا أحباركم ، ثم ليكر لكما في الأجل الذي تعاهدتما
عليه أمام الرب .. فرصة حب تقربكما .

وأحست مريم ، وهي تودع ديرها في عين كارم وأرص
حرون أنها تودع ذكريات عريضة عنيها . وكم تمت لو صار لها
انقام في هذه الديار .. ولكنها لا تمك من أمرها إلا أن تمضي
في الطريق التي رسمها لها الرب .. مع يوسف .

كانت الطريق من أورشليم إلى اساصره عريضة على مريم . لم تمض
فيها من قبل . وإن كانت قد سمعت عنها كثيرا . لكنها اليوم تمضي
مع يوسف . متجهين إلى ديار جديدة ، بأرضها ، وإلى حياة جديدة

لم تكن تفكر فيها من قبل . ولا شئت أن يوسف ومريم كان يمحسان
في الطريق سعيدين بهذه الرحلة . إلى حيث الناصرة ، وإذا كانت
الطريق طويلة شاقة .. إلا أنهما لا يشعرا بالتعب ، فقد شاهدا
الكثير مما أنساهما بعضا من مشاق السفر .

فهذا ركب من رجال هيرودس .. يصطحبون معهم بعضا من
فتيان فلسطين مساقين كالغبيد .. وتصاربت الأراء حول هؤلاء
الفتيان . قال بعضهم إنهم ناثرون على الوان ورفضوا دفع الضرائب
التي فرضها رجال هيرودس ، ورغم آخر أنهم عارضوا رجال
هيرودس حين احتطفوا راحيل إحدى الفتيات الحميلات ليسوقها إلى
قصره .

ومضى يوسف ومريم في طريقهما .. بعدان السير حتى تعب
أقدامهما .. فبهذا الراحة حيا .. يتحاذيان أطراف الحديث .. ربما
كانت أحاديث الذكريات الماضية ، وربما كانت تطلعات المستقبل ..
مستقبلهما كزوجين يسبحان معا خيوط حياتهما . سعادة وإيماناً ..

قالت مريم ليوسف :

كأنى بما سير هذه الرحلة ، كواحدة من رحلات هذه الحياة وحق
الرب فأني لأحسها بداية لطريق طويلة .. نرى .. هل يكون لنا
في هذه الحياة ما كان لغيرنا ؟! لكم كان يصيب لى أن أبقي في هيكل
الرب .. عابدة قانتة .. لكن .

- لكن ماذا يا مريم ؟! أأست سعيدة بهذا الإختيار ؟!

- يسعدنى ما شاء الرب لى .

وسأكون بك نعم الروح والأح والأب

فلتكن هذه الرحلة بداية رحمة الحياة يا يوسف .

- كأتك يا مريم تتحدثين عن أمر يشعل بالك !!

لست أدري ، ولكن كثيرا من الصور تتراءى أمام عيني حتى
يكأنى أذكر ذلك الحلم الذى رأيته دت يوم .. يوم حطنت حين
غفت عيائى لحظة لا عزم لى بمداها ..

- فماذا يا مريم ؟

- لقد رأيت كأتى أسير فى طريق طويل .. أعد الخطا .. لا أعبا
بشيء .. حتى تلك الأشواك التى كانت توجع قدمى ، ولا التعب
الذى كان يسركنى ، ولا تلك المخوف التى كانت تراود خاطرى ،
ولكنى ماضية ..

- ثم ماذا يا مريم بحق الرب ؟

- ومع ذلك مصيت .. أطلع إلى الشمس حتى يكون النهار ، وإلى
القمر حين يقبل الليل هكذا كما فعل الآن يا يوسف ..

- وماذا بعد يا ابنة العم ؟

- ثم حيل لى كأ أن قسا من نور قد هبط إلى .. امتدت إليه يدي ..
أمسكت به .. تحول فى يدي إلى مشعل مصىء .. لم أر فى حياتى
صوفا مثله فرحت وسعدت .. ومصيت فى طريقى أسرع
الخطا .. أهتدى بالنور .

- يا له من حلم عظيم .. ثم ماذا ؟

وحدث نفسى كأتى فى حديقة غناء . تكسوها حصرة بصرة .
تسير فيها جداول لماء نفية صافية . يعطرها شذى أرهاها .. تملأها

أشجر نواكه . تدلت ثمارها وأقبل الناس ، يقطعونها .. شهية .
صية .

- ومادا عن الصوء يا مريم ؟

لست أدري ، ولكنه مصى . كأنى كان نوراً يهدى الناس إلى
هذه الحديقة حتى تبدو هم ثمارها .. مصى هذا النور .. رأيت
يبتعد .. يعلو ، والناس سعداء .

قال يوسف :

- لك الله يا مريم .. إنك بقية صالحة .. نكأنى بك تتحدثين عن
آمال الناس وأحلامهم . ورب ليكل إلى لأشعر بأن بك فى الحياة
شأننا .

ومصى يوسف ومريم فى طريقهما وهما يستعيدان صور ذلك
الحلم .. حتى وصلا إلى .. الناصرة .



(٨)

مرة أخرى عادت أليصابات إلى وحدتها ، بعد أن ودعتها مريم ويوسف ، فشعرت بفراع كبير ، وهي التي حرمت الدرية ، وكانت فيما مضى - راضية بذلك حين عوصتها مريم عما افتقدته ، لكنها الحياة .. ما يكاد الإنسان يدمح في ستمائها لنجما مصيئا .. حتى يمضي سريعا . من أجل ذلك بقيت أليصابات في درها . وحيدة إلا من تلك الذكريات التي كانت تذكرها بمريم .

لم يكن عريبا أن تعود أليصابات إلى حنينها .. إلى الأمل الذي يداعبها ، وم يكن زوجها ركريا بأقل لطفة منها إلى الولد .. لقد اعتاد دائما - وهو الذي جاور السبعين من عمره - أن يدعو ربه في كل صلاة صحيح أن ركريا قد بلغ مبلغ مبيع الشيوخ ، أصابه الكبر .. صوى جسمه .. وهن عظمه . عطى المشيب رأسه ، وانحى كمن طار به البحث عن أمل صائع في الثرى .. لكنها أثقال الحياة التي حملها على عاتقه خلال السبعين عاما ١١ كم هي ثقال تلك الظروف التي كان ركريا يعيشها . جسم تلك الأعزاء التي يكاد يوء بها كاهنه . كارتلك الآمال التي ينصلع إليها من خلال سبيه الطويلة ، معما قليل .. سيرحل إلى حيث آبائه وأجداده ، ولكنه لم يعقب وندا ، ولم يحلف درية ، فهل يقبل الرب دعاءه . ويمسحه بها يحمل بعده الراية ؟!

من أجل هذا كنه .. بقي ركريا متعلقا قلبه بالله والأمل .. لم

يستضع اليأس أن يذبح إلى نفسه ، فبقى يباحي ربه بعد كل صلاة .
يدعوه :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ أَلِيَّ يَعْقُبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ (١)

وحاء يوم عيد الفصح .. وكان على ركزي أن يؤم الناس لصلاة
في بيت الرب . وشد الصباح الباكر . بدأت اوفود تصل إلى المدينة
الكبيرة قادمة من شتى أنحاء فلسطين . جموع كثيرة قبلت على المدينة
حيث هيكل الرب .. حاءوا جميعا للصلاة والتقرب إلى الله والدعاء
له .

وبدت أورشليم في ذلك اليوم ، وقد أحدث ريتها ، وماحت
بالحياة وبحركة ، وعصت شوارعها بالروار ، وهرع الناس إلى بيت
الرب عليهم يحتنون مكانا قريبا من الهيكل .

كان بيت الرب على صحامته واتساعه ، وتعدد ردهاته وممراته
قد امتلأ بالناس ، وسرت فيه مظاهر مختلفة من شئون الدين والدنيا

(١) سورة مريم الآيات ٤ ، ٥ ، ٦

معا . تبعث فيه صيحات لئاعين والتحار . تخالطها دعوات
المصلين وطالبي الحاجات ، وصرحت الأطفال

وكان ركزيا قد اصطحب معه روجه أليصابات ليس أفر
ثياب ، وأشرق وجهه بابتسامة الرضا والأمل .

وحينا كانت الشمس تسرع في حضاها نحو المغرب .. وكان
فرصها الذهبي يمضي إلى الأفق .. تسحب معها حيوط أشعتها
العارية .. لم يكن في بيت الرب موضع لقدم . حينما أتته ركزيا
خطوات ثالثة إلى مديح الرب ، فسث فيه بعض ساعة قدم للرب
ذبيحته بين نظرات الناس وترايم الصلاة .. حتى إذا انتهى من ذلك
أقبل على القوم ، فحياهم وهو يقول :

- أيها القوم .. احشعوا لركم .. يتقبل صلاتكم . إدعوه
يستجب لكم يرعاكم في شئون ديكم ودياكم .

وسكت الرجل قليلا ، وقد إستهواه موقف الناس ونظراتهم ،
فأحس بعصاة عظيمة ، وراد وجهه إشرقا وهو يقول :

- طهروا نفوسكم .. نقروا قلوبكم .

فما لبث طويلا .. حتى حطا بضع خطوات ، فأخذ يمشاء تلك
المسيرة التي أعطاها له أحد خدام الهيكل ، ثم راح يصعد درجات
السلم الإثني عشرة ، ورائحة السحور تبعث ذكية عطرة . يحملها
السليم إلى كل من في البيت وخارجه ، والناس يبطرون إلى ركزيا
وهو يصعد الدرجات واحدة بعد الأخرى . حتى إذا وصل إلى
الدرجة الأخيرة احتفى داخل الهيكل . حيث امكان المقدس .

هناك أدرك الرجل أنه أقرب ما يكون إلى ربه ، فراح يدعوهم بكلماته يردد تلك الترابيم التي حفظها عن أمائه وأحداذه ، وأناس من وراءه .. يرددون معه نفس الترابيم والصلوات .

خصات قصيرة مصب على رجل . فيما هو كدس أنصر ملاك الرب واقفا عن يمينه . صامتا حاحيه . فهرته الدهشة .. أصابته رعدة في حسده . حتى كادت المحرة أن تسقط من يماه ، وكاد أن يمست تلك الكلمات على شفتيه وهو يقول :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾^(١)

وكرت دهشة الرجل حين رأى ملاك الرب يطر إليه . كما يطالع على وجهه سطور آماله ، وسمع من يقول له :

﴿ يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾^(٢)

حاول الرجل أن يتكلم .. لكن الدهشة عقدت لسانه وهو يسائل نفسه أيمكن أن يتحقق ذلك ؟^{١٥} يكون له علام وقد أصابه الكبر ؟ وماذا يقول القوم عنه ؟^{١٥} يالها من هدية طال انتظاره لها . عند ذلك تأكد ركوبا أنها مشيئة الرب ، فشكر له فضله على هديته .. لكن صوت ملاك الرب عاد يقول :

(١) سورة - عمران الآية (٣٨) (٢) سورة مريم الآية (٧)

وسيكون سبأ .. لأنه يكون عطيما أمام الرب ولا يشرب حمرا ولا مسكرا (٣) .

قال زكريا ، وقد عاودته محاوره بقدر ما رادت فرحته .

﴿ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنْتَ آمِرًا فِي عَاقِرٍ
وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٤)

أجابه ملاك الرب

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٥)

قال زكريا :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ (٦)

قال ملاك الرب

﴿ آيَتُكَ إِلَّا نَكَلِمَ النَّاسِ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (٧)

احتفى ملاك الرب ، وراح زكريا يستعيد تلك الكلمات ، فلا يستطيع أن يطقها . ترى ماذا يقول الناس ؟ وماذا يقول الناس عنه ؟!

(٣) أُعيد في بعض النسخ (٤) سورة (٥)

(٤) ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، سورة مريم (٥) ، ٩ ، ١٠

لا بد أنهم سيتقولون عليه وعلى امرأته ، ويصيحان مضعة في
الأفواه ، ومثارًا للسحرية في محالس الناس . لكن الرب الذي شاء
له ذلك لن يتحلى عنه .

كان القوم مايرالون يسظرون حروح ركريا من الهيكل ، وقد طال
هم الانتظار ، فأيقنوا أن أمرا ما قد وقع له .

قال أحدهم :

- نعل الرجل قد أعجرتة شيوخوته عن الخروح إلي ، فسقط
مريضا في هيكل الرب .

وقال آخرون :

- فما أعظمها من مهابة .. أن يلقي لإسان ربه وهو في رحابه !

وقال آخرون :

فليصعد أحدا المكان المقدس ، فليطر أمر الرجل .

وصاح البعض :

انتظروا قليلا ، فلعل لرجل قد استعذب التقرب من الله وطل
به الدعاء .. لعنه يدعو الرب من أحلا .. ولعل الرب يستجيب
لدعائه .

وشعرت أليصابات هي الأخرى عما بدا على وجوه الناس ، وعلى
شماهم ، وحشيت أن يكون مكروها أصاب روحها ، وكادت أن
تناديه .. لكنها سمعت صيحة القوم :

- هاهو زكريا .. قد أقبل عليكم .

ونظر لجميع فإذا زكريا قد اكتسى وجهه بالكثير من
الإفصالات : الخوف ، المرح ، الأمل . كان وجهه شاحبا
وكانت خطواته ثقيلة وثيدة متهالكة ، وهو يهبط درجات السلم
حتى تلت الكلمات التي عتاد الكهان أن يتلوها عقب الصلاة .
لم يستطع هو أن يصق بها أو يجيب عن أسئلتهم .

قال قائل منهم :

- ما أمر هذا الرجل ؟ ولم تأخر في الصلاة ؟ ما هكذا عهدنا
بالكهان ؟

وقال آخرون ، وماتزال عيوسهم شاحصة إلى زكريا :

- لعله الخير أصابه .

لكن الرجل لا يجيبه ، لا يستطيع أن يريل علامات الإستفهام التي
تتراقص أمام عيوسهم .. كهم يتساءلون . لكن الرجل صامت لا
يتكلم ، وما كان ذلك إلا تمشيئة الرب أو لم تكن آيته ألا يكلم الناس
ثلاث ليال سويا .

ولاشك أن هذا الصمت قد صاعف دهشتهم وهو يشير إليهم أن
يستمروا في صلاتهم .. عند ذلك أيقن القوم أن ذلك أمر .. واعتقد
آخرون أن الرجل عاخر عن الكلام . لكن هؤلاء وهؤلاء أجابوا
لكاهن إلى طلبه ، فمضوا في الصلاة .. يسبحون ويشكرون

عادر زكريا اهيك تصحبه روجه أليصابات وبعض من أهل

قرينته إلى داره ، فما انتهت الأيام الثلاثة حتى عرف اسس من أمر
الرجل ما يخفى عنهم وعرفت امرأته تلك بشرى التى حملها إليه ملاك
الرب .

فالت أليصابات وهى مسح عن روجها بعض محووه

- لتكون مشيئة الرب فوق كل مشيئة :

فما مصت بضعة أيام حتى أحسست بأعراض الحمل ،
فامتبشرت ، وحمدت ربها أن استجاب لصلاتها .



(٩)

كان يوسف يعمل نجارا في المصرة . اتحد لنفسه حابوتا يراول
فيه عمله .. يكسب قوته .. سعيد بذلك ، وأكثر ما تكون سعادته
بحوار مريم حبيبته .. حين يعود إليها بما أفاء الله عليه من رزق ،
فيحد عندها ما يثلج صدره .. يهدأ إليها .. ينجسها . يمسحها حبه ،
فتمسحه حباها .. قلداً بقبان طاهرون .. يشدان معا أحلى أغنيات
السعادة .

وكانت مريم - رغم فارق السن بينها وبين يوسف - سعيدة
باحتيار الرب لها ، قابعة تما وهبها الله من فيض نعمته . تقضى يومها
في عملها ابدي اعتادت عيه كثيرات من قومها . حيا مع عمتها ..
تشاركها طهي الطعام ها وليوسف .. وحيا تمضي إلى معرّها ..
تحرّكه ، لتعزل حيوط دقيقة رائعة . عليها تكون ملسا يدرأ عنها
وعن يوسف برد الشتاء ، وكثيرا ما كانت تذهب إلى بئر القرية ..
تصطحب معها بعض من الفتيات إلى حيث يملأ جزارهن بالماء ..
يحظرون فرحات سعيدات ، فإذا ما إنتهت أعمال المنزل .. هدأت إلى
مصلاتها . تناجي ربها .. تدعوه . تشكره .. هكذا سارت الحياة
مريم ويوسف .

حتى كان ذلك .. حين ذهبت مريم مع من ذهبن إلى بئر القرية ..
سعيدات بأعبياتهن . يشدنها . يتحدثن عن آماهن في أرواحهن
ولادهن . ومصت الفتيات سعيدات عائذات بحرارهن . لكن

مريم - لأمر شاءه الرب - تعثرت بعص الشئء وهى تملأ وعاءها .
أو لعل الحياء دفعها إلى أن تتأخر عن رميلاتها حتى وحدث نفسها
وحيدة .. فشعرت بشئء من الخوف .

فيما هى كذلك تفكر فى أمرها . إذ أمامها فى حمل الوحه
مشرق المحيا .. تحيط به هالة من نور يقول لها .
- مباركة أنت فى النساء (١) .

كانت كلمات الفتى مباحاة لمريم ، فأحست بالخوف والفرع ،
وأصابتها ما بصيب فتاة طاهرة حين يفتحم عليها وحدثها عريب .
يحتريء عليها ويفسد عليها عزلتها ، وحاولت مريم أن تصمت نفسها .
لعل الفتى الذى رآته مجرد أوهام . حيلالات .. لا .. لا .. إنه مايرال
أمامها . فيه لمسة روحانية ، ووجهه فيما تراه فيه براءة وطهارة .
ومع ذلك فما زال اسؤال يلح عليها .. يجيرها . ما أمر هذا الفتى ؟
وما حاجته ؟!

(٢) ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾

لكن الفتى مايرال واقفا ، وماترب نظراته تنحى إليها وابتنسامة
كبيرة تعنو وجهه . تصمتها ، فشعرت بشئء من اراحة وكان لسانها
مايرال يهيج بذكر ربها ، كأنها ترجوه السحاة .. أن يحفظها من
الفضيحة ، فإذا الفتى يقول لها :

(١) الحبل لوقا الفصل الأول فقرة (٢٨) .

(٢) سورة مريم الآية (١٨)

﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾^(١) .

راحت مريم تتحسس الكلمات : رسول ربها .. ملاكه .. جاء إليها فمرحبا به . ولكن ما أعجب مايقول .. أن يهبها غلاما ؟! بالنعجب !! أعلام لها وهي ماتزال عذراء لم يمسهها بشر ، أعلام لها وهي ماتزال بكرًا لم يتصل بها يوسف . أيمن أن يكون لها غلام بلا أب ؟ وماذا يقول القوم عنها ؟

قالت مريم تناجي ربها :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾^(٢)

وجاءها صوت ملاك الرب :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً

لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾^(٣) .

واقترب ملاك الرب من مريم ، ومايزال صدرها يصطرب خوفا ورهبة ، ثم نفخ في حيب درعها ، وقال :

وهاهي ذى أليصابات سييتك .. هي أيضا حبلى بإبن في شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنه ليس أمر ، غير ممكن لدى الله^(٤) .

(١) سورة مريم الآية (١٩) (٢) سورة مريم الآية (٢٠) . (٣) سورة مريم الآية (٢١)

(٤) انجيل لوقا الفصل الأول فقرة (٣٦ ، ٣٧) .

ثم ودعها ملاك الرب أحنى فحة كس أصواتا ما تر
تأديها :

﴿ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿١٢﴾ يَمْرِيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْحَدِي

وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿١٣﴾ ﴾

م ندر مريم كم من الوقت مضى عليها ، وكيف عادت إلى دارها
بعد ذلك وهدأت إلى ربها تصلى له حتى إذا سبت من
صلاتها .. شعرت كأن نلسما شديدا يملأ قلبها ، وأن نور ربها يلف
ماحوها .

وتذكرت مريم حضنها . ترى ماذا يكون أمره معها ؟ وكيف
تخبره بى حدث ؟ وهل هو بمصدق ها ؟^{١٢} أتراها تبتسك عندها . أم
سيشعر بعصه فى رحولته وكرامته ، فيسرحها ؟! يتحلى عنها . يسي
العهد الذى قطعه على نفسه عند هيكلك الرب فأى صدر حوى
تلحاً إليه ، وتأس به ، لتحد السوى ، وحسن المشورة ؟!

وتذكرت مافه لها ملاك الرب عن أليصابات ، وكيف استحباب
الرب لدعائها فحملت . لقد كانت ها أما وكان ركريا روحها ها
أن فبس غير أليصابات تستطيع أن تكشفها سرها

هد قررت مريم أن يذهب إليها ، لكاشفها حقيقتها ، وليكن هذا

معا لقاء ، وحديث .

(١٠)

جلست أليصابات ذات يوم .. كعادتها في صحن دارها . تفكر في أمرها ، وكان الحمل قد ثقل عيها ، ولعلها تذكرت مريم ، ولم تكن تعرف من أمرها شيئا مد عودتها ويوسف إلى «ناصر» ، وراحت تسائل نفسها .. ترى ما أمرها ؟ كم تود لو كانت مريم بجانبها تؤسسها في وحدتها ، وتقف بجانبها ساعة ولادتها ..

فما لشت امرأة طويلا في أفكارها .. حتى سمعت صوتا يناديها .. صوت رقيق .. إنها مريم .

أقبلت مريم على أليصابات تحييا ، وأقبلت هي الأخرى على مريم ترد تحيتها .. تحية السلام والحب .

ومع أن مريم كانت محمودة من سفر وصور الطريق . ومع ما كانت تعانيه من خوف . إلا أنها سبت بعض آلامها وفرحت كل مهما بالأخرى فرحا ملأ عيها تلك اللحظات الطويلة التي احتضنت فيها أليصابات مريم .

لكن أليصابات فيما بدا على وجهها .. في دهشة . ترى ما الذي يدهشها ؟ أهو ذلك اللقاء المفاجيء ؟ أم تراه ذلك السؤال الذي يلح عيها ؟ ومريم هي الأخرى في دهشة من أمر أليصابات التي بدا عليها مظاهر الشك والخيرة .. أتراها قد عرفت سر حملها ؟!!

قالت أليصابات ومرار الشك يبدو عليها .

- يحق الرب .. ألا ما حدثيني يا مريم عن حقيقة أمرك ؟!

قالت مريم في حجل :

- ذلك ما حملني على المحيء إليك ، هورث موسى ويعقوب ما وحدث
أحدا حيرا منك . أهدأ إليك وأبثك حقيقة نفسي

قالت أليصابات ، وقد كبرت الدهشة على وجهها .

- هو كذلك يا مريم . لقد كنت أتذكرك قبل مقدمك .. ولكن
أحشى أن يكون طئي حقيقة يا مريم . فدعى ماجئت من أجله ،
وأريحي عني تلك الأستار التي تحجب حقيقة أود أن أعرفها منك .
سؤال يحيرني منذ دخلت علي .

- وهل لي أن أكنم عنك سرا ؟!

- فحدثيني يا مريم ، واصدق القول .. أنت حامل ؟!

فظفرت إليها مريم نظرة طويلة ، ثم قالت فيما يشبه الهمس :

- فكيف عرفت ذلك ؟!

وسكتت أليصابات ، وسكتت مريم . وكل مهما تفكر في
الأمر . لكن أليصابات عدت تقول في عطف :

- أنت حامل يا مريم ؟! أخبريني الحقيقة .

- هو كذلك .. ولكن يحق موسى ويعقوب ماجئت العهد ،
ولكنه الأمر الذي لا أملك رده ، وهذا ما حدث اليوم أحدثك فيه .

- بهذا حدثني نفسي ، منذ دخلت على ؟

- فكيف عرفت ذلك ؟

- أحسست من في بطنى يركض لمن في بطنك ، فذلك تصديق
له . مباركة أنت من النساء يا مريم ، ومباركة ثمرة بطنك ^(١)

قالت مريم :

لكأنى أحد في كلماتك إجابة لسؤالى .

- فأى سؤال يا مريم ؟ فكم يطيب لى أن أحقق لك ما يسعد
نفسك .

- ليس ما أبتغيه حسا ، ولكنه أمر يدور فى حدى ثم تأكدت
حقيقته .. لقد كان ملاك رب صادق ، وما عهدي به غير ذلك .
لم تكن أليصابات تعرف شيئا عما حدث لمريم .. عن سر حمها ،
فقالت فى دهشة :

- ملاك الرب ؟! ماذا تقولين يا مريم ، وبماذا أنبأك ملاك الرب ؟!

فألقت مريم بنفسها فى أحضان أليصابات ، وقد عليها شيء من
بكاء ، وهى تقول :

- ذلك ما حملنى على أن أقطع الطريق . ضوينة شاقة لأصل إليك .

كانت هبة النقاء قد أنسهما نفسيهما ، وكانت ما تزالان فى صحب
الدار ، فما سمعت أليصابات كلمات مريم .. حتى أخذت بيدها إلى
الداخل حيث تستمع منها حقيقتها ، فما هدأتا حتى قالت مريم :
- تعظم نفسى للرب ، وتفتح روحى بالله مخلصى ، لأنه بطر

إلى تواضع أمه ، فهو ذا مدد الآن تصوسى جميع الأحياء ، لأن التقدير
صع في عظامهم ، واسمه قُدُّوس ، ورحمته إلى أحياء وأجنال للدين
يتقونه^(١)

ثم أخذت مريم تحكى لأليصابات مكان من أمرها مع ملاك الرب
يوم صهر خا ، وأبيأها سأ حمها روح من رها ، ثم كيف أحرها
حمل أليصابات ، وكانت أليصابات تستمع مريم ، وصور كثيرة
تترأى أمام عيها .. صورة زوجها زكريا ، وما حدث به في هيكل
الرب .. يوم عيد الفصح مد بصعة شهور .

كان الحديث بينهما صويلا حاولت أليصابات أن تمسح عن مريم
بعض مخاوفها وهى تقول :

صدقيني يا مريم ، لقد حسنتك قد اقتربت يوسف ، فأصحتنا
روحين قبل أن يميء الأهل لى تهاذنى عليه

كلا ، فما رلنا على العهد ، وما أدري ماذا يكون شأن يوسف
حين يعرف حقيقة .. ذلك مايؤرقنى ، فهل لك أن تيرى لى
الطريق ؟!

هو كذلك يا مريم ، لقد كان الرب معك دائما فلى يتحلل
عدك ، وأنت اغتبه الصاهرة . العابدة .. سائلة يعقوب .. مباركة
نت من النساء يمرم ، ومباركة هى ثمة بطك .

أقل زكريا .. فإذا مريم عيد روجه ، فسعد ببقائها ، وسعدت

(١) عن نوح فصل لؤل العفرا (٤٦ ، ٥٠)

بلقائه . لكن الرجل فيما بدا على وجهه كان في دهشة . لقد سمع ما كانت تقوله روجه . مباركة أنت من النساء يا مريم ، ومباركة هي ثمرة بطبك !! وحاول الرجل أن يصرف نفسه عن أفكاره ..

حُبِّلَ إلى ركريا أن يوسف قد انفصل عن مريم .. أن شبحوخته لم تقبها أن تكون روجه .. لكن مريم لم تلوثها أفكار بات قومها ، فلماذا فعلت ذلك .. لماذا ترفض إختيار الرب لها ؟ ثم ماذا عن حمها وثمرتها ؟!

وأدركت أليصابات ما بدا على وجه روجه ، فأسرعت تحذثه عن حقيقة مريم : عن ملاك الرب وعن خوفها من يوسف

وإذا كان ركريا مؤمنا ببراءة مريم وطهارتها .. لكنه كان حائفا عليها من قومها فأحد يطمش حاطر مريم يخفف عنها مخاوفها قال ركريا وكانت ما تزال مريم تنظر إليه كأنها تنتظر حكما ببراءتها :

- هوى عليك يا مريم ، ونمحك الله الطمأنينة .. إن ذلك يذكرني بسوء أشعياء النبي (الرب يعطيكم علامة : ها إن العذراء تحبل وتلد إننا) (١) .

وبقيت مريم في بيت ركريا .. تشارك أليصابات وروحها حياتهما وصلاتهما .. حتى كان ذلك اليوم الذي وضعت فيه أليصابات وليدها .. يحيى أو يوحنا فملأت فرحة أرحاء الدار ، وسعدت

(١) انجيل متى الفصل الأول الفقرة (٢٣) .

أليصابات وسعد ركريا ، وسعدت معهما مريم ، فقد تأكدت أن ملاك الرب كان صادقا في بشراه لها .

فما هي إلا أيام قليلة .. استردت أليصابات قوتها ، فودعتها مريم عائدة إلى البصرة . وقد قررت في نفسها أمرا .



(١١)

لا تستطيع مريم أن تكتف عن يوسف سرها ، فهو حبيبها ، فلا بد من أن تكشفه بحقيقة أمرها ، فإن شاء وقف بجانبها ، وإن شاء تحلّى عنها .. لكن مريم .. لا تدري ماذا تقول ليوسف ، وكان هو الآخر في حيرة من أمر مريم .. أكثر من علامة استعظام تبدو أمام عييه . توترق تفكيره ترى ما هذا الذي يبدو عديداً وهي ما برل عداء ولم يمسه بعد ؟ إنه حبيبها ، وهو أكثر من عرفها ، يعرف فيها الصهارة ، الاسمة لكنه يرى عييه ، نه دهشته . أيجز أن يكذب عييه ؟ وهل يطاوعه قلبه أن يتهم مريم في صهارتها وعفافها ؟!!

وقرر يوسف في نفسه أن يضع مريم على سريرته .. أن يصححها عن حواصره وشكوكه ، وكانت مريم هي الأخرى قد قررت أن تبوح ليوسف بسرها .

عد يوسف ذات يوم . ونعب النهار قد تمهكه ، والشت قد أضاء ، فجلس إلى مريم يحادثها ويخاطبها ، ولكنه كان يخشى أن يصت بسره ، ولاحظت مريم ما يعاينه يوسف ، وفتربت منه وأضاءت بانسانتها نور الإيمان في قلبه ، حتى كادت أن تتعد عنه ضووه . لكنه أثر أن يضع حداً لأفكاره .. فقال لها :

- مريم يا بنة العم ست أدري كيف أشك بشيء حرصت فيما مصى أن أميته في مصى .. لكنه أقصر مصحعى ، وعلى على

أمرى . فهل لك أن تريحى عنى أشتار الحيرة التى تطلل تفكيرى ؟

بك ما تشاء يا يوسف .. حدثنى بحق الرب ما يؤرقك

. فحدثينى يا مريم . أيمكن أن يبت سات بعير بدرة ؟!

قالت فى ثقة :

- نعم هو كذلك بحق الرب .

وعاد يوسف يقول :

- أيمكن أن تنمو شجرة بلا ماء ؟!

- نعم هو كذلك وحق الرب .

فتردد يوسف ، وحاول أن يسك ، لكنه استجمع شجاعته

وقال :

- فهل يولد ولد بلا أب ؟!

عند ذلك أدركت مريم ما يعنيه يوسف لكنها لا تمك إلا أن

تحيه على سؤاله فقالت :

- نعم يا يوسف

- نعم ؟! ماذا تعين يا مريم ؟ أیولد ولد بلا أب ؟!

أم تعلم يا يوسف أن الرب حق آدم من غير أب أو أم ؟ أليس

الله على كل شىء قدير ؟

نظر يوسف إلى مريم نظرة صوبية ، وهو يذكّر كلماتها ، فالرب

قد حق آدم بلا أب ولا أم هذه حقيقة ولكن هل يمكن أن

تكون ضوئه حقيقة أيضا ؟! قد تكون مريم صادقة فى دعواها .. لكن

أتراها تعمل ذلك حتى تخفي حقيقة الذي يكره في أحشائها؟! إنه يعرف طهارتها ، ولكنه لا يريد أن يكون حديث قومه

وشعرت مريم بما يدور في ذهن يوسف ، فراجت تحكي له ما حدث لها يوم جاء ملاك الرب وبشرها ، ثم ما كان من أمرها مع أليصابات ، وكيف كان ملاك الرب صادق مع ركريا ببشراه
أحد يوسف يسائل نفسه . إن كانت مريم صادقة فيما تقوله فمدا يكون أمره وأمرها بين قومه؟ ومدا يقول الناس عنهما؟..
لن يرحمهما الرجال والنساء من كلمات اسوء . سيتهمون مريم في طهارتها . ويستكروا على يوسف رجولته . يا لقسوة الصروف!!
بيته رفض حصبة مريم من قبل ، فهو شيخ نهر السبعين ، وهي فتاة ما تزال في ربيع عمرها .. لكنها مشيئة الرب .. ترى مدا يفعل يوسف؟ كم يصيبه التفكير ومريم تنظر إلى وجهه كما ينظر المتهم الوثق من براءته إن ذلك لقاصي ليطبق براءته . لكن يوسف كان قاسيا في حكمه . فقرر أن يتركها يحلبها . بقطع تلك الرابطة التي تربطها بها . إنها حامل وفي بطنها جنين سيحرج إن الوجود يكشف أمرها ويهتك سرها!!

وكان يوسف وما تزال نقية من حب في قلبه لمريم - حريصا على ألا يمتصح سرها ، فقرر أن يتحجى عنها سرا .. فيكتمها لعصية . بها فتاة طيبة ولا شك ، فيكره الرب معها إن كانت برئة . وليعصر لها إن كانت قد حاسب الصواب!!

وبقى يوسف وحده يفكر في أمره ، وكانت مريم ما تزال تحاول

أن تحف عنه هول المفاجأة .. لكنها لا تدري شيئا عما إنتواه
بحوها ثم هي لا تمكث إلا أن تهرع إلى رما . تصلى له .. تدعوه
أن يصرف عن يوسف مخاوفه وشكوكه ..

وابتعد يوسف .. مضى في طريق لا يسرى إلى أين يسير ،
ولا كيف ينتهى به المسير .

كانت الشمس ما ترال في السماء .. ترسل على الكون بعضا من
حرارتها ، فجلس يوسف تحت ظل شجرة .. علّه يجد فيها برد
الهواء ، فيها هو كذلك .. لعب العمص بحفيه لحطة لا يعلم مداها
إلا الله ، فسمع صوت هاتف يهتف به :

- يوسف يا ابن داوود .. لا تحف أن تأخذ مريم إمرأتك ! فإن
الذى حملت به هو من الروح القدس ، وستند إننا يخص شعبه من
خطاياهم^(١) .

استيقظ يوسف من عموته : أيقظته سمة رطبة .. هبت على
وجهه فمسحت عن عييه آثار عموته . لكن صوت اهاتف كان
صداه ما يزال يتردد في سمعه .. يأمره أن يمسك على مريم

وعاد يوسف يفكر في الأمر ، وتذكر بعضا من تلك الكلمات
التي قرأها في التوراه . تذكر ما جاء في سفر أشعياء النبي : ها إن
العدراء نحل وتلد ابنا .. إذب . فقد تحققت السوءة .. وهذه هي
العدراء مريم ، وعدا سيكون وليدها سينا .. هكذا تقول السوءة ،
وهكذا قال ملاك الرب لمريم يوم يشرها .

(١) ميل مى الفصل الأول انفرود (٢ ، ٢١)

لـ بعد أمام يوسف إلا أن يبقى على مريم . فرفع رأسه إلى السماء ، وقال وهو يأخذ طريقه عائداً إلى مريم :
نعم . سأحفظ ما العهد . أشهدك يا رب أني سأكون نجاسها أدراً
عنها كل مكروه . حتى إذا ولدت إنسا كنت هما ومعهما قاسمهما
الحياة والصلاة .

وحبها عاد يوسف إلى مريم . وحدها ما تزال تاشد رها .
تصلي له فأحيرها بما كان من أمره وأنه ما يزال على عهده الذي عاهد
عليه الرب ..

هالك . أحسب مريم أن رحمة الرب تتابعها في خطواتها ،
فبسطت يديها تدعو رها :

رباه . تحت حكمتك ، أنت راعيسي ، فلا يعورني شيء .. أشرت
في طريق حياتي ، فلنكر معي دائماً . تنكر عوني .. حتى يأتي
أمرك ، وتخرج إلى الوجود كمنتهك

كان يوسف يطر إلى مريم بطرات غصص حسانا عليها ، وإيماناً بها
فقد رأى اليوم صورة جديدة أكرم من نبت التي عرفها من قبل ،
وكان يصالع في صفحة وجهها سطورا باسقة بوز الإيمان . حتى
إذا انتهت من دعائها . استنهصها ، مؤكداً إيمانها وتقديره لها وحمه
حبا يحدوه الأمل ويشرق به الصلاح . فبانه من حب ، وما أعظمه
من رباط يربط بين مريم ويوسف .

(١٢)

أحست مريم كأنها نفست عن كاهنها حملا كان يثقلها ، فقد عرف يوسف كل شيء ، وآمن ببراءتها ، واستأنفا معا حياتهما التي ألقاها في الناصرة فمريم كعادتها - تقضى يومها في طاعة الرب ، فإن حلت إلى نفسها ، أمسكت بمعزلها .. بينا لسانها يهتف يذكر ربها . وهي بهذا وذاك سعيدة راضية .

أما يوسف .. فقد كان يمضى يومه في حانوته لدى اتحده على مقربة من داره ، حيث يقوم بعمله كسجار .. يكسب قوته ، ليعود إلى مريم آخر النهار عما أفاء الله عليه من ورق

عاد يوسف ذات يوم إلى مريم ، وقد بدت على شفته بضع كلمات يريد أن يطلقها . لولا أن شيئاً ما يجمعه يمسكها ، فأدركت مريم بشغافية إحساسها ما يبدو على وجهه ، فابتدرته قائلة :

- أجدد يا ابن العم ، تريد أن تحدثني فيه ؟
- هو كذلك يا مريم . ولكن .. بحق الرب فإنى أحشى أن يكون فيه ما يحزنك .

- إنما كل شيء بمشيئته الرب يا يوسف ، ولست أرى في مشيئته إلا ما يرضاه لي ، فحدثني بما شئت .
قال يوسف :

- لقد نادى المنادى ، وتحدث الناس اليوم بأمر الوالى .. أن يسجل كل واحد اسمه في سجلات أعدوها لذلك .

- وماذا يهدف الوالى بأمره يا يوسف ؟!
- إنها مشيئة سيده أعسطس ملك روما . أن يكتب كل الشعب في مسكونته .
- وماذا يا ابن العم ؟ ما أرى في ذلك بأسا .

فمسح يوسف يده على خيته ، وتردد قليلا ، ثم قال .

- إنما نحن من مدينة داوود ، ولابد أن نكتب في مدينتنا في أورشليم ، والأمر فيما يبدو يصعب تحقيقه ، وأنت على وشك أن تضعي طفلك وهذا ما يقلق خاطري .

قالت مريم في ثقة وإيمان :

- إنما هي رحلة إلى ديارنا وأهنا في حيرون وأورشليم وعين كارم وبيت لحم لنتقى بهم هناك .. تعرف من أمورهم ما عاب عنا . كم أشعر بحنين إلى بيت الرب إلى الهيكل المقدس ، أصلى في محرابه .. هلم يا يوسف ، فأنى أرى في ذلك خيرا .

ما هي إلا أيام قليلة حتى كانت مريم ويوسف يشدان الرحال في طريقهما إلى أورشليم . يشاركهما في رحلتها كثير من هؤلاء الذين حرحوا مثلهم حتى امتلأت الطرق ولأودية المسافرين

كانت الجموع العظيمة من اساس .. يتساقون في طريقهم .. يتسامرون ويتحدثون . أحاديث كثيرة .. رى كانوا يتحدثون عن ذلك الوالى الذى كبدهم كثيرا من المشاق ، وعن هيرودس ذلك الحاكم الآدومى الذى يذيق أهل فلسطين الضيم ، ولعل بعض هؤلاء المسافرين كانوا يتحدثون في ديبهم وما آل إليه أمرهم منذ أهدوا تعاليم

رسم ، ولعلهم تحدثوا عن ذلك الخير الذى انتشر بين اساس عن قرب
ظهور نبي جديد . يعود بالشعب إلى الطريق السليم .

ها هو دا يوسف يتقدم مريم ، وهو ممسك بعقود دانتها حيا ،
وأحر يتبعها .. يحهد نفسه من أجل راحتها .

ومع مشقة الصريق ووعورته ، ومع ما كانت تشعر به مريم من
ثقل حملها .. إلا إنها كانت تحد في كل شيء صورة من إبداع
خالقها . فهذه رهرة حميلة تتألق فوق عصيها في إشراق وجمال
كأنها تنسم للعادين والرائحين .. وتذك نثة ألفت . بالأمس
بذرة .. فصارت اليوم بيتا أحضر وعدا نخرج رهرة يفوح عطر
شدها ، ثم ثمرة يطيب مذاقها ، وهذه الشمس في السماء كانت في
الصباح الباكر . تربو إلى العام من حلال شرفتها ، ثم أحد قرصها
يكبر ويملأ الكون نوراً وصفاء . يكسوه كساء فضياً حياً ، ودهنياً
لامعاً حياً آخر .. ثم هي بعد ذلك تميل نحو المغيب .. لتتجه إلى
مستقرها ، تسحب معها حيوط أشعتها لغاية .. تسمىها كما تفعل
عروس بأصرف ثوب عرسها ، وشيء من الحجل يعطي حساباً ،
لأمل يبدأ فنوناً في أن يعود إليهم في يوم من الأيام ، وهي
تكر ما يكون شرفاً من .. وأه .. ألا ما أبدع حكمه الله وما أعظم
فكره !!

وعندما وصل إلى بيت مريم ، فوجدته قد ولدته مع عاتق
من
..

وأشفق يوسف على مريم ، فمارسها إلى كهف صغير تستريح فيه .
حتى يعود إليها .

مصت الشمس إلى معرهما ، وأقبل الليل ، فبسط أرديته على
الكون .. ولم يعد يوسف من المدينة .. فأحسست مريم بالوحدة
والخوف . لولا ذلك الصوت الذى يترأى لها . يطمئنها .. لكن
شيئا ما .. تحس به ، ولم يكن لها به سابق عهد . إنها علامات
المخاص التى تشعر بها المرأة حين يقترب موعد خروج جنينها إلى
الحياة .

إذن فقد أصبحت مريم على موعد لقاء مع إبنها .. وما هى إلا
لحظات .. حتى يشرق على لعالم بوره .. أليس هو روح من الله
وكنتمه .. فيها هى كذلك سمعت صوتاً يادياها :
- لا بأس عليك يا مريم ، فإن كان يوسف قد تركك .. فإن الرب
معك .

عند ذلك رفعت يديها إلى السماء فى صراعة .. تشكر ربها ،
فأبصرت حذع نحلة قائمة على مقربة منها .. فحطت إليها خطوات
بطيئة .. حتى إذا وصلت إليها .. إلى النحلة .. راحت تحتصها كلما
أحست بالآلام المخاض .

أقبل يوسف ، وم يكن قد استطاع أن يعثر على مكان فى المدينة
المردجة هراعه مطر مريم والمخاص يهرها ، فأدرك أمرها ، فأسرع
عائداً إلى المدينة يبحث عن قبة تساعدنا فى أمرها .

ومرة أخرى عادت مريم إلى وحدتها ، ثم شعرت كأن سحابة كثيفة من الخوف تتراحم في رأسها . لقد تذكرت قومها .. ستعود إليهم ومعها ويدها .. دليل جريمتها حسب طوبهم ، ترى ماذا سيقولون لها وماذا تقول هي لهم ؟!

قالت مريم في نفسها .

﴿ يَلَيِّنَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾^(١)

لا بأس عليك يا مريم . فالرب قد شاء لك الحياة .. ليكون لإبليك شأن كبير . رسول الله إلى قومه .. يهديهم الطريق المستقيم .

ولمعت في الأفق هالة من النور . . أصاءت كل ما حول مريم ، وفي تلك اللحظة انفصل عن مريم حبيبها .. طفلا حميلا .. يتسم لأمه ابتسامة مشرقة . ملأت كل ما حوهما إشراقا وصياء .

واستقبلت مريم وليدها بلهفة الأم الحاية ، فاحتضنته بين ذراعيها وما يزال النور يصيء ما حوها ، وانشمت له .. ابتسامة أودعت فيها كل ما تحمله في قلبها من معاني الأمومة ، ثم تطلعت إلى السماء كأنها تنادي رها ، ولشد ما كانت دهشتها حين رأت السحابة التي كانت يابسة مد خطات . قد استحالت بقدرة الرب إلى شجرة باسقة . إحصرت أعصاها .. وتدللت ثمارها على غير موعد .

يا الله . يا لحكمته ! كم نشواق نصحها إلى حبات الدج . تعوض

(١) سورة مريم الآية (٢٣)

ما فقدته من جهد احص ، فهل يكون الرب رحيمًا بها ، فيدركها
ببعض منه وبصع قطرات من الماء ؟^{١٩}

وكان الرب مريم كريمة .. حين حاءها صوت ملاكه يدي :

﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢١﴾

وَهَزَى إِلَيْكِ مِجْذَعِ النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝٢٢﴾

فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۝٢٣﴾

وفعلت مريم ما أمرت به ؛ فراححت يديها واهتتت نمسك
باسحنة نهرها هرات حميفة ، فإذا ثمرات السح الرطب تتساقط
عليها فتمد يدها وتأكسها حلوة طسة المذاق ، ثم تنظر عند
قدميها ، فإذا جدول صغير يساب مؤه عذب ، فارتوت ما شاء
ها الله ، واستعادت بسك بعض من قوتها ، فقامت إلى يسارها ،
وعسله ، ثم قمصته ، ونسجت به إلى مرود نهر ، فآخذت من أرضه
بمهد ، ومن مسكه حصه كال سب مرود عبارة عن كهف
صعد في أطراف من أطراف بيت لحم .. يتحده الرعاة مكانا
بعضه من أرضهم .. في ذلك المكان .. أهملوا
مهمهم .. في ذلك المكان .. أهملوا
مهمهم .. في ذلك المكان .. أهملوا

وهدأت مريم مع وليدها . وقد ملأ النور كل ما حولهما ،
وسمعت أصواتاً ملائكية تهتف بأعيات الفرح والمحة والسلام .
وأقبل يوسف .. بصطحب معه سالومة .. القابدة لكتهما
ما كادا يصلان .. حتى أبصرا ذلك العيص من النور . ينف المكان
بعلالة فضية رائعة فأدرك يوسف أن الرب قد هيا مريم الخير ،
ونصرت سالومة إلى مريم ووليدها وتعجبت لأمر لم تعرف من قبل ،
ولمحت في عيني الوليد نوراً وإشراقاً ففررت أن تبقى مع مريم وابنها
ويوسف .. ترعى شؤونهم .. لقد ندرت نفسها لمصاحبتهم ،
ولتشاركهم الحياة . حياة لمحبة والأمل والسلام .



(١٣)

كان السكون يلف النكون . بينما حس بعض الرعاة في مراود
ماشيتهم .. على غير بعيد من مريم .. يطاردون النور عن أحفاسهم .
يتسامرون ويتجادلون أضرب الحديث . ولأن الوقت كان شتاء
والهواء البارد ينفخ الوحوه . فقد أشعل الرعاة النار .. وراحوا
يشمسون الدفء من حرارتها ، ويستنهمون الأحاديث من ألسنتها
اللاهثة أو بصيص بقاياها المتقدة .

قال أحدهم وهو يفرك يديه وقد أحس بشيء من الدفء ، أو
كمن يطلب المزيد منه :

كم يسعد الإنسان بالدفء يسرى في جسده .. لكم كان الرب
رحيماً حين مسح الشمس لتهب لنا الدفء هائلاً ..
فقاطعه الآخر ضاحكاً :

- والنار ، لتبنا الدفء ليلاً .

بينما أردف ثالثهم :

ومن أجل هذا .. اتحد بعض الناس من النار إلها لهم ، واتحد
آخرون من الشمس آلهة لهم . أما نحن فلنا في رب موسى خير إليه
بعده ، وسأله أن يعيد إلينا دفء الحرية التي اترعها الرومان منا

فنظر أحدهم إليه نظرة سريعة وقال :

- وحق رب موسى يا قوم . إن أحسن في تلك الليلة .. كأن

سلسيلا من السعادة يملأ قسى حتى ليحيل إلى أن نورا يملأ الكون من حولنا ..

- هو كذلك وحق موسى .. كأنتك تنطق بما أشعر به .. إن نفسى تهتف بى .. أن حيرا قد هبط على العام النيلة .

فيما هم كذلك .. إذ هالة قوية من النور تحصف أبصارهم .. تجعلهم يلتفتون إلى بعضهم وإلى بصيص النيران التى حبت أو كادت .. كأنهم يتساءلون عن مصدر هذا الضوء .. ربما شعر الرعاة بالرهبة أو الخوف . ولعنهم حاولوا الهرب إلى مكان آخر .. لكن النور الساطع يملأ كل ما حولهم ، وهذا صوت يهتف بهم :

- لا تخافوا . فها أنا أبشركم بفرح عظيم .. يكون لجميع الشعب .
إلتفت الرعاة إلى بعضهم ، وما يزال الصوت يبعث وسط هالة النور :

- لقد ولد لكم فى مدينة داوود . نبي مبارك ..
وأيقن الرعاة فى هذه الكلمات الصدق ، ولكن الدهشة ما تزال تملث عليهم عقولهم .

قال أحدهم فيما يشبه التأكيد :

- إذن فقد تحقق النبىء ما جاء فى التوراة .. نبي من نبي إسرائيل .. يعيد الشعب إلى شريعة موسى ، ويخلصهم من أدران الحقد ، ويأخذهم إلى طريق الهداية .

وقال الثانى :

نكر .. أين نجد هذا الوليد ؟ السى الحديد ؟! - كل ما حولنا ليس

إلا حلاء ومزاود ماشية .. فهل يكون السى الحديد يسا لواحد من
الرعاة ؟ وهل يمكن أن يولد سى فى هذا المكان ؟!

وقال ثالث :

- إنما هى مشيخة الرب .. فهلا يا رب أترت لنا الطريق إلى مكانه ؟
عند ذلك سمع الرعاة صوت ملاك الرب يهتف بهم :
هذه علامة لكم . تحذون طفلا مقمضا فى مروود . إنه بيبكم .
ويظر القوم .. فإذا هالة النور تكبر وتكبر ، وهم يسمعون أصواتا
ملائكية تترنم بأنشودة عذبة :

- هذا هو يوم المغفرة . هذا هو يوم المرح .. هذا هو يوم
السرور .. هذا هو يوم التهليل . المجد لله فى الأعلى ، وعلى الأرض
السلام ، وبالناس المسرة .

لم يتألك الرعاة أنفسهم فأحدوا يهتفون :
هلموا يا قوم ، فليبحث عن مكان رسولنا ، وهذه هالة النور .
تتبعها .. هلموا يا قوم ..

أحد الرعاة طريقهم - تسبقهم هالة النور - يفتشون كل مروود ..
أيمكن أن يهتف لهم الرب طريقهم إلى السى المولود ؟

كانت مريم ووليدها وسالومة ويوسف .. قد استقروا فى ذلك
المروود ، فيها هم كدنت . سمعت مريم أصواتا تقترب منها ،
فأوجست فى نفسها خيفة ، وخشيت أن يكون قومها قد عرفوا
أمرها ، فحاءوا يهتكوب سترها أو أن أعداء يظنون وليدها ..

يبتعون به شرا ، وراح يوسف وسالومة يطمئنان خاطرها .. لكن الأصوات تقترب وتقترب .. تهتف في فرح :
- الحمد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

قالت سالومة وقد طربت هذه الأشودة .
- ما أحملها من عنية ! وما أعدت كلماتي كم أحسن فيها صفاء وإيمانا .. إنها أشودة السلام .

فما هي إلا خطوات . حتى كان الرعاة يقفون عند باب المروء ..
حيث توقفت هالة النور .

وحينا دخل الرعاة .. وحدوا مريم وطفلهما بحانها مقمطا كما حدثهم ملاك الرب .. وتعنقت أبصارهم .. فإذا بشراقة نور تملأ قلوبهم .. وإذا هم يشعرون كأن هواء رقيقا يعش صدورهم .. أو ريحا طيبة تملأ نفوسهم عذرا ، أو كأن سندسلا عذب يصفى ما كان في قلوبهم من لفة .. فيحرون سُخدا ، وما تزال كلمات الأشودة تتردد على ألسنتهم :

- الحمد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة .

كانت مريم ويوسف وسالومة يبطرون إلى الرعاة في سجودهم ، فيحين إليهم أنهم ملائكة أظهار ، فأيقنوا أن ذلك فصل الله .. يؤتية من يشاء .

وحكى الرعاة لهم ما شاهدوه وما سمعوه ، فسعدت مريم بما سمعت واطمأن خاطرها ، وتذكرت دلت يوم بدتها الملائكة .

﴿يَعْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
 عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَعْرِيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي
 وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾﴾

عند ذلك .. رفعت مريم رأسها إلى السماء ، وسجدت لربها
 شاكرة .. داعية .. قانتة .. عابدة .. راضية .



(١٤)

مضى الرعاة بمخدون الرب ، يشرون الخبز في كل مكان ،
ويعنون للناس عن ميلاد سبي حديد ، ويشرون الشعب بالسلام
والحنّة ، وكان يوسف إذا ترك مريم مع وليدها وذهب إلى أورشليم ..
سمع حديث الناس عن ميلاد السبي الحديد ، فإذا عاد إلى مريم ..
أبأها بما يتحدث به الناس ، وما يتذكرونه في محاسنهم ، ويصف
لها سعادتهم ، فتسعد هي بما تسمع .

مضت بضعة أيام .. استعادت فيها مريم بعضا من قوتها ..
فصعدت مع يوسف إلى حيث سجلا إسميهما واسم إلهما في
السجلات التي أعدها الوالي . لقد أسمياه . عيسى .. الرب أمرها
بذلك يوم نادتها الملائكة يامريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

فليكن اسمه كما شاء له الرب .

كان على مريم ويوسف بعد ذلك أن يدها إلى قومهم في
حبرون .. ولم يكن يوسف ومريم وحدهما . فقد أسا بمقدم ثالث
لهم ، ولا شك أن يوسف ومريم قد فكرا فيما يتعرضان له من أقاويل

واقتراعات . فأما يوسف ، فسياله من القوم فحش القول ، مما يجرحه في كبريائه ورجولته .. إلا أن ذلك لم يكن يصرفه عن الوقوف بجانب مريم ..

وأما مريم . فمع ثقتها برسها إلا أنها لا تستطيع أن تنكر على القوم طوبهم ، وهم يرونها تحمل دليل جريمتها أو إثمها كما يظنون .. قد يعرف البعض قدرها . ويتذكرون ماضيها وصلاحها ، وهؤلاء قلبون .. لكن كثيرين قد يروا فيها صورة لفتاه غابته . حات عهد الرب .. وبها من جريمة شعبة من أمة عمران ، وحفيدة داود وريثة زكريا .

وهكذا كانت الأفكار تتراحم في رأس مريم فهل يكون الرب بها رحيمًا ؟!

قالت مريم تنادى ربه :

- رباه .. أشرت الأرض .. وهادها ونخادها . سهوها وراوبها ، وأرت نفسي بالإيمان بك .. فهلا يارب .. أن تشرق بنور إيمانك في قلوب قومي ، فتبر بصائرهم ليهدوا .. فإني أرحم من أن تتركني وحدي ؟!

وكان لله قد سمع نداءها ، فحاءها صوت ملاكه يهتف بها :

﴿ فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي - إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ .

مضى الجميع في طريقهم حتى إذا وصلوا إلى مشارف ديارهم .. أحست مريم ويوسف بالخوف يهرهما ، ولا شك أن كثيرا من الناس قد رأوهم ، فارتسمت الدهشة على وجوههم وهم يرون مريم تحمل طفلها ..

فهذا أليغار .. شيخ من شيوخ إسرائيل .. إنه يعرف مريم ، وكثيرا ما رآها في بيت الرب ، قائمة على خدمة الهيكل ، فأعجب بصلاحها وتقواها . إنه يراها اليوم تحمل طفلا .. ترى ماذا حدث ؟! سؤال كان يلح على الرجل ، حتى هم أن يسأل يوسف ومريم أمرهما .. لكن شيئا ما جعل الكلمات تتعثر في حلقة ، فطر إلى مريم في ربة ، ونظرت هي إليه في استحياء ..

حتى هذه الفتاة التي ربطتها مريم ذات يوم صداقة ومحبة ، فعرفت عنها العفاف .. إنها اليوم تراها على غير عهدا . أمّا وهي ما تزال حصية !! وكادت امتدة أن تقترب من مريم لتسأها أمرها . لكن الحياء معها .

أسرعت مريم ويوسف وسالومة إلى ديار القوم .. حتى إذا وصلوا .. كان التعب قد أهكهم ، فهدأوا يطلبون الراحة .. لكن القوم تجمعوا حول مريم في دهشة ، وهم ينظرون إلى من تحمله بين ذراعها ..

لكن مريم صامتة . شاحصة إليهم بنظراتها حياء ثم متجهة إلى ربها بعينها حياء آخر . ثم تحمص الطرف حياء .. والقوم ينظرون إليها في دهشة .. يصرون على معرفة الحقيقة .. قال أحدهم في استنكار :

﴿ يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾^(١) ..

وقال آحر :

﴿ يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا ﴾^(٢)

وقالت إحداهن :

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾^(٣) .

أخذت مريم تتدبر معاني الكلمات .. نعم .. لقد كان أبوها رجل فضل وعلم . وكانت أمها طاهرة نقية ، وهي . لا تقل عنها طهارة .. يعلم الرب أنها ما إقترفت ذبا ، ولا أقدمت على معصيته .. لكن لا بأس .. لقد أمرها الرب أن تصمت ، ويوسف هو الآخر .. لا يستطيع أن يقول شيئا رعم أن أصابع الإتهام تشير إليه .. وبطرات القوم لا ترحم شبحونخته .

وأعاد القوم سؤالهم :

- يا مريم .. أما آن لك أن تحبرينا بأمرك !؟

عد ذلك أدرك أحدهم أن بعضا من الكلمات تتحرك على شفثيه .. كأنما تدعوه لماصرة مريم ، فأتجه إلى القوم .. يهْدَى من ثورثهم . قائلا :

- فدعوها يا قوم .. لعلها مثقلة بأحرامها أو لعل مشقة الطريق أعيتها ، فما تدري ما تقول لكم .

(١) سورة مريم الآية (٢٧) (٢) (٣ ، ٢) الآية (٢٨)

ومع الخيرة والخوف والقلق والأمل .. انجذبت مريم إلى السماء ..
 كأنها تسترحم ربه .. حتى إذا ما إرتدت ببصرها إلى طفلها .. خيل
 إليها أن نظراته متعقبة بشيء فنظرت حيث رأت طائرا أحصر جميلا
 يرفرف بجناحيه ، فأشارت إلى أبها ، فأتجه القوم بعضهم إليه ،
 فأدركوا في نظراته صورة جديدة لم يألفوها في مرأى الأطفال من
 إشراق ونور .. لكن أحدهم قال :

﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾^(١) ١٩

وكبرت الدهشة على وجوه القوم ، وهم يسمعون صوتا رقيقا ..
 يفيض عنوبة وصفاء .. يقول لهم :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾^(٢) ..

وتلفت القوم حولهم .. يبحثون عن مصدر هذا الصوت .. من
 يكون صاحبه ١٩ وعاد الصوت يقول :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾^(٣) وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

مَا دُمْتُ حَيًّا .^(٤)

(١) سورة مريم الآية (٢٩) (٢) سورة مريم الآية (٣٠)

(٣) سورة مريم الآية (٣٠-٣١) (٤)

نظر القوم إلى بعضهم كل يقرأ ما على وحوه الآخرين من الدهشة . وكل منهم يشير إلى الطفل في مهده وهم يهتمون .
- يا للعجب .. أطفل لم يتحاور عمره بصعده أيام .. يتكلم !! يحيب على سؤال عجزت أمه عنه !!

واته القوم إلى مريم ، وهم أكثر ما يكونون دهشة وحققة لمعرفة سرها .. لكن صوت الطفل عاد إليهم . يحدث أفدتهم . يخاطبهم .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ ﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣

وصاح القوم :

إياها معجزة .. آية من السماء ، صورة ناطقة بقدره الرب
كأن جمع كبير من القوم قد اجتمعوا فيمن اجتمع من الناس ،
وكان من بينهم بعض رجال الدين أليغار ، وركروا ويوسا .
أحد زكريا ينظر إلى القوم في دهشته ، وصور كثيرة تترأى
له . يوم جاءت مريم إلى زوجته أليصابات تسنها بأمر الرب
ومشيته .. قال زكريا :

- لعلكم يا قوم قد تأكدتم من براءة مريم ، فوفق الرب إلى لأعم
من أمرها وأمر وليدها ما لا تعلمون ، فدعوا مريم وإياها .. وليكن

أنكم فيما رأيتموه اليوم سرًا تحتفظ به في صيات نفوس .. فمن كان
مكم غير مصدق لما رأى : فيمسك سره خوف المصيبة والعار .
أما من تفتح قلبه بالإيمان فيمسك سره خوفًا على مريم واسها ..
فكم أحشى عليهما من أيدي العابثين .

وحاول بعض نقوم أن يعترض على كلمات ركريا ، واتخذ آخرون
موقف الدفاع عنه . وكان يوسا واحدا منهم .. لقد تذكر يوسا
ما سمعه ، وما يحدث الناس به بالأمس عن ميلاد نبي جديد ، والأمل
الذي يبشره الرعاة وهم يرددون الأعية العذبة : انمجد لله في الأعالي ،
وبالباس المسرة .. عند ذلك لم يتألك الرجل نفسه وهو يقول :
- هو - وحق الرب - ما يتحدث به الناس .. رسول الله إلينا ، وإنا
له حافظون .

ومع الدهشة والذهقة ، والخوف والأمل ، وضحيح الإنكار ،
ومهمة التساؤل . انصرف الناس في انتظار ما تحميه الأيام .



(١٥)

من نضحة الإيمان ، وحنان الأمومة . أخذت مريم تهب إليها الحب
والعصف .. بقدر ما أودع الله في قلبها ، وكان يصل يملأ عليها حياتها
سعادة وإشراقا ولرب معهما ، مهيء لهما من فصل رزقه ، ووافر
نعمه .. ما أدهش القوم من حوهما حتى أصحى القوم - إلا قليلا
منهم - يؤمنون بظهارة مريم .

دخل يوسف ذات يوم على مريم . وبصع كلمات تتردد على
شفته يريد أن يطقها . ولاحظت مريم ما بدا على وجه يوسف ،
فأقبلت عليه ونظرت إليه وقالت :

- أجدد في أمر قومنا يا يوسف ؟!

- ليس في أمر القوم جديد يا ابنة العم .

- فمادا بحق الرب ؟! كأنك تخفي عني أمرا ، فحدثني بما شئت .

- أما عن قوما .. فلم يعد يُجيبنا أمرهم لكن سر ابك يوشك

أن يشاع بين الناس !

- أتعي أن الناس يتحدثون عنه ؟

- هم يفعلون ذلك .. يتحدثون عن ميلاد بى حديد .. يقولون إنه

ولد لعتاة عدراء في بيت لحم ، وأن حما نبع في السماء ليلة مولده .

قالت مريم وهي تحاول أن تحصى جرعتها :

- فما يحيفك يا يوسف ؟!

- لعنت يا مريم تعرفين ما قد يتعرض له سبي جديد في عام فسدت فيه الصنائير .. بين قوم يسودهم حكام قساة .. وكم أحشى أن يصل القساة إلى طفلك .

قالت مريم -

- لكى واثقة من الرب راصيةً بأمره .. فأحبرنى عمرىد عما يتحدث الناس .

قال يوسف :

- مد أيام وفد إلى أورشليم ثلاثة رجال من المشرق .. إهم محوس .. يتحدثون النار إلهاً هم ولا يعترفون بإله موسى ، وم يكن مقدم الرحال للرحلة أو التجارة .. نكسهم جاءوا يبحثون عن صعل تبيأت به كتبهم بأنه سيكون نبيا ..

- ومادا يجعلك تعتقد في أنهم يطسبون ولدى ؟!

- هم يبحثون عن طفل ، يقولون إنه وند بعدراء لم تقترن برجل ، أمكن أن يكون طفل كهذا غير عيسى ؟!

- فهل تجد في هذا ما يحيفك يا يوسف ؟

إما أحشى أن يكون للرجال هدف تحشموا من أحل تحقيقه مشقة الطريق ، لعلهم جاءوا كى يباثوه بأذى .

- بل لعلهم يحدون فيه بيا لهداية قومهم .. لكن حق الرب يا يوسف حدثنى بما يقوله الناس .

- إهم فرحون .. هكذا تنطق وجوههم .. لكنهم يدهشون فيما يسمعون سؤا المحوس عن طفل ولد لعدرء . حتى إن بعضهم

يقابل سؤال الرجال بالسحرية وكم أحشى أن يعرف هيرودس
أمرهم

قالت مريم :

- ثق في الرب يا يوسف . لقد عشت أكثر من تجربة .. يوم جاء
ملاك الرب يُسئلي بكلمته ، ويوم خشيت أن تكديبي أنت ، ويوم
أحسست الوحدة .. بعيدة عن الأهل حيث وصعت إيسي .. ويوم
تعرضت لأقاويل قومي . وكان الرب بي في كل مرة رحيمًا .
فما انتهت من كلامها حتى انتحلت عَصَلَاها . تناجى رما .



(١٦)

الظلام يلف الطريق الذى يسير فيه هيرودس . يهبط تارة ،
 ليرتفع فجأة .. يستقيم حيناً . ثم يحس سريعا ، وهيرودس ماض
 فى طريقه .. يعتمد على بصع شمعات حافطة الضوء .. يمسك بها
 رجاله .. فجأة إنطفأت الشموع ، فراح هيرودس ورجاله
 يتحيطون فى الظلام .. اخوف يملأ قلوبهم . وصور الضحايا التى
 ظلمهم هيرودس تتبأ له .. تُحبل إليه أنه يدوس فوق حشهم ..
 يعوص فى دمائهم .. يتعثرو فى أشلائهم .. كأن كثيرا من الأيدي
 تحاول أن تمسك به .. إسم صحايه الذين قتلهم هيرودس . تُحبل إليه
 أنهم مهصوا .. يطارذونه ، ولح ييهم وديهم ، وروحته مذبذبة ،
 وصديقه دوميتوس وجادياس .

استيقظ هيرودس من نومه ، وقد نال منه الخوف ، وتحس
 عقله ، ليتأكد أن كل ما رآه حلما ، ومع ذلك أصابه المرع وهو
 يصيح :

- لا لا .. لن يكون ذلك . لن سقى شموعى ، ولن يكون
 الظلام حولي .. سبقى شموعى موقدة .. بل مشتعلة !!

وقبل أن ينتهى هيرودس من كلماته .. كانت دُباله آحر شمعة من
 شموعه فى الحجرة قد انطفأت . فانتشر الظلام حوله . لمس الظلام
 الذى كان يعطى طريقه فى الحيم الذى رآه مد الخطوات .

أسرع هيرودس إلى نافذة حجرته . يفتحها وجاءه ضوء الشمس أكثر مما يكون إشراقاً .. إنه نور من نور ، ولكنه لا يحس به ، وعاد هيرودس يصيح :

- لا .. لا .. لن يكون ذلك !!

كانت صيحاته عالية مدوية حتى حيل لرحانه أن حدثاً وقع لسيدهم ، فأسرعوا إليه .. الملح يساق خطواتهم ، وقلوبهم تكاد تقهر من صدروهم من هول الدهشة . فماذا عساه قد حدث له ؟ وعاد هيرودس مرة أخرى ينظر إلى بقايا الشموع التي انصمات ، ثم إلى قرص الشمس في الأفق ، والحراس من حوله لا يدرون من أمر سيدهم شيئاً .. تلتقى عيانه احائرتان يعيونهم امتسائلة ، فلا يجد ما يقوله هم ، ولا يمكنونهم إلا الصمت .. وحاول هيرودس أن يتلمس لنفسه الهدوء ، وحتى أن يكشف أمره .. فأمر حده وحراسه أن ينصرفوا .

وجاء شمعون . واحد من رجائه الذين استطاع هيرودس أن يستميتهم إليه ، وكان شمعون أكثرهم إخلاصاً لسيده ، وما كاد هيرودس يرى شيطانه حتى حيل إليه أنه وجد من يسيه أفكاره . وكان ما يزال يهذى بكلماته :

طريق طويل .. مصلم . وشموع بلا لهب ولا ضوء .. دماء .. صرخات .

وحاول هيرودس أن يمسك عن الكلام ، وسكت لخطات ..

يسترجع صورا كثيرة ويربط هذه الصور بما أسأه به أحد رجاله عما
يتردد على ألسنة الناس .. قال هيرودس :

- أتذكر يا شمعون ما حدثنى به عن ميلاد ميسى جديد .. ولد في
أرض اليهودية ١٤

- فبحق الرب . أعد على مسامعى ما يتحدث به الناس عن هذا
النبي .

- ولكها يا مولاي محرد أكدونة يطلقها بعض رجال الدين ليحققوا
بها مكاسب لاستعادة مجدهم .

- ليكر هذا يا شمعون ، ولكى أريدك أن تحدثنى عما يقوله الناس
- يقولون يا مولاي . إن رجلا من اشرق .. قد قدموا إلى

الديار . يسألون عن عدراء وصعت صفلا في بيت لحم ، وأن هذا
الطفل سيكون نبيا .

وسكت شمعون قليلا ثم قال :

ونكر ذلك هراء ، فهل يعقل أن يكون لعدراء طفل بعير رجل ١٤

- وماذا عن الناس يا شمعون ١٤

- لم يحد الناس - إلا قليلا - فيما يقوله المخوس إلا السحرية

قال هيرودس ، وقد تنابعت في دمه صورة الحلم :

- وأين هؤلاء المخوس ؟

- إهم يحويون أنحاء أورشليم . يمشون عنه .

- فليأتوا إلى .. اتنوى هم

- نعم ، فيأتوا إلى مما أشد حاجتي إليهم . مَرُّوا الخرس . فليبحثوا عنهم .

- لك ما تشاء يا مولاي .

فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة .. حتى عاد الخنود بالرجال المخوس ، حيث كان لهم لقاء مع هيرودس .



(١٧)

هدأت مريم مع وحيدها . ينعيم بعطفها وأموعتها ، فيأمنان معا ،
ويسعدان معا .

فبينما هي كذلك ذات يوم . سمعت صرقات تدق بابها ، فأحست
بالخوف .. لكنها ذكرت ربها . كانت الطرقات سريعة حافة . لكنها
ماذا تفعل ويوسف ليس معها ، وهي وحيدة إلا من وليدها وربها .
ترى هل تأذن سطارق ومن هذا الذي يطرق بابها ؟

كان الرجال الخوس قد عرفوا من سجلات هيرودس أسماء من
ولدوا منذ عامين في هذه المنطقة . أراد هيرودس أن يساعدكم على
أمل أن يأتيوه بضعف ، ويدت استطلاع الخوس أن يصلوا إلى حيث
مريم وطفلها .

حين دخل رجال على مريم ورأوا طفلها . أدركوا أنه هو الذي
يبحثون عنه . بعد تعقبهم . كـ . . كانوا على موعد معه ،
أو كـ . . كان

ولاحظ الرجال في نظراته . كأنها تعذ إلى قلوبهم ، كما
بعد لسان نور وسط لحة انطلا.

كان
صرخ

أنهم يريدون شراء بابها ، فأسرعت إليه تحتضيه .. كأنما تحوّل بيته
وبين الرجال :

قال بلطشاصر أحد الرجال :

- ما أحسب إلا إنك أم الطفل ؟

- هو كذلك ، فماذا تبتغون بحق الرب ؟!!

أجاب مكبور وعلى شفّته انسامة مطمئة :

- اسمه عيسى .. أليس كذلك ؟

قالت مريم :

وكيف عرفت هذا ؟ وما حاجتكم به ؟ هل من شيء أقدمه لكم ؟
إن خيرات الرب ونعمه كثيرة .

فقاطعها غصبار ثالث الرجال :

فما جئنا لشيء من هذا أيتها المعلم عليها .. وإنما قطعنا الطريق من
ديارنا . طويلة شاقة ، لمصل إلى إيلك ، وحق ربك ورب آبائك
ما جئنا إلا لخير نريد أن نتأكد منه .

تذكرت مريم حديث يوسف لها منذ أيام عن رجال المشرق الذين
يسألون عن عدراء ولدت طفلاً ، وأدركت أنهم قد عرفوا أمرها ،
وحاولت أن تصرفهم في أدب ، ولكنها سمعت أحدهم يهمس لزميله :
- ما أشك أنه الطفل ، إن اسمه ندى كما تتبعه قد توقف هنا ..
انظر .. إنه م يراى في السماء ، كأنه يحرس من في هذه الدار .

ولاحظت مريم أن طفلها قد أُمس إلى الرجال ، وأنهم هرحوا به ،
وراحوا يقدمون له الهدايا دهنًا ، ولبانًا ، ومرا

قال بلطشاصر لمريم وقد شاهد على وجهها علامات الشك ..
لئن تصدقيا أمرك وطعلك ، فيما يعطيه عهدا أن يكون لكم درعا
من أى خطر .
.. .. !!

وتبعه ملكيور :

- إله رسول هدية لقومه .. يتشر ديه فى المشرق والمغرب .. هكذا
تقول كتبنا ، وسيجد الناس فى ديه سلاما وأما .
بعد ذلك شعرت مريم بالطمأنينة ، وصدقت ما قاله الرجال حينما
رأتهم يسجدون لآبها اعترافا ببركته وشكرا للآلهة التى هدتهم .
ولم تكذ سالومة تفيق من دهشتها .. حتى سمعت بلطشاصر
يقول :

كم سعد يا سيدتى حينما تمحيا حصلة من شعر طعلك .

وقال ملكيور :

- لتكن بشرى إلى قوما ، وتأكيدا لنوبيقما فيما قدما من أجله .

وتبعه غصبار :

وتكن كل شعرة منها صريقها إلى جهة من جهات العالم ..
إلى حيث تتشر تعاليم ديه .

فالت مريم :

- بكم ما شئتم ، ولكم بحق ارب .. إله موسى .. كونوا على السر
حافظين . يعلم الرب مقدر حوق من بصش الحاقدين .

أشد بطشا . هيرودس .. لقد قاست الوحدة والوحشة ، وقاست
مرارة سوء الص من قومها ، فهل شاء لها الرب أن تقاسى عذاب
العربة وهي ترعى طفلها في أرض غير أرضها ، وبين قوم ليسوا
بقومها .. !! لكها مشيئة الرب . نيس هو الذي أمر يوسف
بالرحيل ؟ .. فليرحلوا ..



(١٨)

أوشك اسل على الرحيل ، وما تر ل فيه بصع لخطات توشك هي
الأحرى أن تنهى لتؤد ملشرق فحر حديد ، ومع ذلك لم يستطع
هيرودس أن ينام ، فقد حاصمة طائر الكرى ، وحققت هوقه أطياف
السهد وأسهدته . إنه الرجل الذى عانت له الحياه وانحت له
الرعوس نجله أو مدلة ، ومع ذلك فاعكر يوحهه ، والسهاد يصير
على مصاحته .

منذ ساعات كان هيرودس يعث مع العاشين من حاشيته ، ويسعد
بأعيات حواريه ، وهم يشدون أعدب الألحان ، ويرقص فيلهن
عاطفته ويشعل جدوة عريته يعب من ككوس الخمر ..
يتحاطفها من أيدى حساوات قصره ، فيسكر برحيق حماهه ،
ومفاتى أجسادهم ، ورجاله من حوله . يشاركونه الشراب
والصحك .. لكن المحس قد انقص ، وعادر الجميع القصر ، وبقي
هو وحده يدرع حجرته حيا . ثم يتوقف لينطلع إلى جدرانها
فيحيل إليه كأن أشباحا تنظر إليه .. فيرتد به البصر حائر انقوى ..
حزين النفس .

ومضى هيرودس بخطوات مترددة والفكر يملأ رأسه .. حتى إذا
اقترب من مدع إحدى حواريه . صاح دوى أن يدرى .
- أمنرديس .. أمنرديس ..

كانت أمرديس فتاة رائعة الجمال . عذبة الصوت . ندية القلب . ولم تكن من بنات فلسطين . ولكن كانت من بنات النيل .. حميدة انمراة ، احتفظها الرومان ذات يوم ، من بين قومها في عيد وفاء النيل .. وابتعدوا بها عن مصر .. حيث باعوها في فلسطين .. وعاشت أمرديس تقاسي العربة والعبودية .. تصارع أمواج الحياة القاسية ، فراحتم تنفس عمًا في نفسها ومشاعرها أحرارًا باكية ، وسمع شمعون أحد أصدقاء هيرودس صوتها فأعجب بها ، وسره حماها ، فأحدها إلى قصر سيده ، لتصبح واحدة من حواريه ، وقربها هيرودس إليه ، فقد كان يظن له أن يستمع لصوتها .. لكن قلبها كان مشدودا إلى هواها فإنها حنًا لا تنساه ، إنها ما تزال على عهدتها لفتاها .. ابن عمها .. لقد كانا على موعد لزمفهما ، ولكن مشيئة جند الرومان ومشية هيرودس أبت عليهما غير ذلك .. شاء الرومان إلا أن يعرفوا بين الحيين . فراقًا من غير وداع ، ودون أن يتروا كل مهما من الآخر براد يحفف عهما لوعة الفرق ، ومن أجل هذا كانت أمرديس حاقدة على الرومان باقمة على هيرودس .

وحينما نادى عليها هيرودس .. كانت ما تزال ساهرة .. تجتر دكرياتها ، وتنحرق شوقا إلى مياه النيل ، وشمس مصر التي تدكرها بألقتها .. تتذكر فتها . ترى هل احتفظه الرومان ؟ ألا ما أعجب هذه الحياة .. هنا في فلسطين .. يقاسون من ظلم الرومان ، وهناك في مصر . يقاسون ظلم الرومان .. فما أقسى هؤلاء المعتدين ! ما كادت أمرديس تسمع صوت سيدها .. حتى أسرع إلى ..

- فلمحت في عييه سطوراً من الحيرة والقلق .. بينما هو أسرع يقول :
- أما زالت يقظي يا أمرديس !!؟
- إنما كنت ابيلة على موعد مع النوم يا سيدى .. حين سمعتك تاديني ، فهلا أستطيع أن أفعل من أحلك شيك ؟
- فتنهذ هيرودس وقال في يأس :
- لا .. لن تستطيعي أن تفعلي شيئاً يا أمرديس .. لقد عجرت أن أحقق لنفسى ما أُنشده !!
- عفوا يا سيدى ، فما يستطيع أحد أن يرفض لمولاي أمراً .
- لكنه حدث يا أمرديس .. لقد عجرت أن أحقق لنفسى الراحة
- فَمَرَّتْني يـ يريج بالك .. إن شاء مولاي ، فبصع كنوس من الشراب .
- لا يا أمرديس .
- فماذا إذن يا مولاي ؟
- النوم .
- النوم ؟! بحقك يا مولاي ماذا تريد ؟!
- هو كذلك يا أمرديس .. فهل لك أن تادى النوم ليلاً حمى ؟
-!!؟
- ألم أقل لك إنك عاجزة عن ذلك . إن الإنسان يستطيع أن يفعل الكثير ، ولكنه قد عجز عن تحقيق أبسط الأشياء .. اليوم مثلاً .
- كانت أمرديس تنظر إلى هيرودس ، فترى فيه صورة الحاكم الظالم ، أليس هو أحد الذين أبعدوها عن قضاها .

وصاح هيرودس :

- إني بكئوس الخمر يا أمرديس .. لعل أنسى نفسي
قالت أمرديس :

- وشيء من الغناء يا مولاي ؟

- ما حاجة لي به فالغناء يطربني .. وأد أريد أن أتعبد إلى عام
السيان . إلى بكئوس الخمر ، فاملئها ، واسكني فيها من رحيق
محرّك ما يسكرني وينسيني أحزاني .

حيثما دخل هيرودس حجرته .. أدهشه ذلك الطلام الذي يملأ
جسامها فقد انطفأت كل الشموع ، وحيثما أقبلت عليه أمرديس كان
يتحيط في طلامه ، فراح تعيد إشعار شموعه . لكها ما تكاد
تشعل واحدة .. حتى تطفئ الأخرى ، وسيدها يطر إليها في
يأس ، وقد تنابعت في دمه صور الحلم الذي رآه .. شموعه المطفئة ،
وصوت أشباح صحاياه يلاحقونه ، وتذكر هيرودس الرحال المحوس
الذين ذهبوا يبحثون عن الصل .. لقد حيّوا أماله .. لم يعودوا ،
فراح يصيح :

ن يعودوا تركوني وحدي الويل لهم !!

وهاجت أعصاب هيرودس وهو يحتطف كئوس الخمر من
أمرديس ليسكنها في حوفه .. حتى لعت الخمر بعقله ، فراح فيما
يشبه النوم لتعاوده صور وأحداث حلمه واستيقظ فرعا وهو يصيح :
لا . لن يكون ذلك . ليقفل كل طعن في بيت لحم .

ولدهشته سمع صوت شمعون يقول :

- وما جاور بيت لحم

- نعم وما جاورها ، فليذهب الحيد ، وليأتوني برءوس الأطفال .
- ولا بد أن يكون رأس هذا الطفل واحدا منها .

ما أشرق صباح اليوم التالى .. حتى كان رجال هيرودس يفتحون الدور .. يتكهون حرمانها .. يبحثوا عن كل طفل وأعمى سكاكينهم فى رقاب الأطفال حتى امتلأت الشوارع بدماء الأبرياء ، وارتفعت صرخات النساء تنكو ظلما فاق كل الحدود ، وبدت النساء فى بيت لحم وقد لسن السواد على فدادات أكبادهن ، وحزن الرجال على أطفالهم ، لكن هؤلاء وهؤلاء . لا يستطيعون إلا أن يحتسوا آهاتهم ويمسكوا دموعهم ، وفى قلوبهم لفة الإنتقام

وأعادت هذه الصورة إلى أذهان الناس . ما حدث لبى إسرائيل فى مصر .. حين عصف بهم عصف فرعون .. فاستحيى بساءهم وقتل أطفالهم ، وعدت بيت لحم وما حولها وقد تسربلت فى ثياب سود ، وأخذ الناس يكون على الحقيقة التى صاغت وسط رحمة الطوبى ، ويأسفون على الأمل الذى كاد يشرق فى حياتهم .. أمل النبى الجديد .. ومع الخوف والفرع .. يسائل الناس بعضهم ما دب هؤلاء الأطفال؟! .. أما يكفى ما يفعله الرجل بشعبه من السخرة والتعذيب إرضاء لسادته من الرومان ؟ وما يستطيع الناس إلا أن يطلبوا الرحمة لأبنائهم ، وإخلاص من الصاعية ، وأن يحفظ رسوله من سكين هيرودس ، كما راحه موسى من سكين فرعون .

وفى حصم تلك الدماء الراحرة التى أراقها هيرودس . بحث القوم عن مريم وطفلها ، فقد عرفوا ما كان من أمر هيرودس وأخوس ،

وأدركوا أن ابن مريم هو الطفل الذي يبحث عنه رجال هيرودس ،
ولكن .. كم كانت دهشتهم حينما لم يجدوا مريم وطفلها .. حتى لقد
ظن بعضهم أن رجال هيرودس قد قتلوا الطفل ونكّلوا بأمه ..

قال أحدهم :

- فأين يوسف ؟

وبحث القوم عن يوسف ، فلم يجدوه ، وتساءلوا فيما بينهم :

- ترى ماذا حدث لهم ؟

وهتف آخر :

- وأين سالومة ؟

فردد الجميع :

- أين سالومة ؟ .. إنها ولا شك تعرف من أمر مريم أكثر مما نعرف .

قال بعضهم :

- فسبحت عن سالومة ، فلعلنا نجد عندها إجابة لسؤالنا .

وتفرق البعض يبحث عن سالومة ، وبقي آخرون ينتظرون .

ومارال السؤال يلح عليهم : أين ذهبت مريم وطفلها ويوسف ؟!

ثم . لماذا تركوا ديارهم وأهلهم ؟ أيمن أن تكون مريم ما ترال على

حزنها مما أصاب قومها ؟!

واختلف القوم ..

فأما هؤلاء الذين طمس الحقد على قلوبهم ، وغمّت بصائرهم عن

نور الحقيقة . فقد شطّوا في ظنهم ، فاعتقدوا أن مريم ويوسف

قد هربا خوفاً من بضشهم ، وليحفظوا معالم جريمتهم ، وليسكبوا

دموع عارهم ، وأما من كان مؤمنا بالله وبراعة مريم .. فقد زاد إيمانا على إيمانه .

وبينما كان الجميع في دهشتهم وأفكارهم .. وصلت إليهم أخبار مذابح هيرودس في المدينة ، ولئن حزن القوم لما يفعله هيرودس ، فقد أسعدهم أن تكون مريم وابنها قد اتعدا عن الخطر .

وصاح من يقول :

إياها مشيئة الرب .. شاء أن يحفظ لمريم وابنها ، فأمسكوا سركم في صدوركم وادعوا الرب أن يكون مع من تركونا على غير موعد وبلا نظرة وداع .. أن يمسحهم الله السلامة .

فردد الجميع :

- آمين .



(١٩)

كان القمر يحرس الكون بوره . يلقي صوته على طول الطريق .. حيث مضى يوسف تصحبه مريم وابنها ، ورفيقتهم سالومة التى آثرت ألا تفارقهم .. ندرت نفسها لصحبتهن .

وعاد الجميع أرضهم ليشدوا رحاهم إلى مصر . اتخذوا من الليل ستارا يحمهم من أعين الرقباء .

ومضى الراكب بعيدا عن أرض هيرودس .. شيخ عجوز يقارب التسعين من عمره .. يمسك بيده رمام حمار أسود ، ويده الأخرى عصا يتوكأ عليها ، وسيدة حميلة فى ربيع عمرها .. ترتدى ثوبا من الصوف الأسود الحش . تعطى رأسها بطرحة ناصعة البياض ، وهى تداعب طفلها الذى يرتدى سروالا طويلا ، وقد علقت على صدره تعويذة ، وريشة قرمزية اللون ، وحلف العجور والأم سيدة أخرى فارعة الطول . تحمل متاع القافلة .. صرة بها ملابس وطعام .. إنها سالومة .

وعندما وصل الراكب إلى أسوار المدينة .. لم يسمح لهم الحراس بالخروج ، فقد صدر أمر هيرودس بذلك .

قالت مريم فى نفسها وقد شعرت بالخوف :
- لا بأس ، فאלله معنا .

وتقدم أحد الحراس من يوسف وسأله :

- من أنتم ؟

عائلة يهودية من فلسطين .

- فأى الجهات تقصدون !

فارتبك يوسف وهو يقول :

- إنما نقصد بلدة بعيدة لتقدم وحب العراء .

لم تتأثرت مريم نفسها ، فقد عساها اليكاء وهي ترحو الحراس أن

يمسحوا هم الطريق . ونظر إليها أحد الحراس وهو يقول

- لكسا يا سيدتى لا نملك ذلك .. فإن مفايح الأبواب أحدها رئيسا

ولن يعود إلا فى الصباح .

وقال الثانى موحها كلامه إلى باقى الحراس :

- هلموا أيها الحراس . فقد انتصف الليل واشتدت برودة الهواء .

بينما ذهب الحراس بعيدا . بقيت .. مريم والعائلة ، ولأمر

ما حملت سالومة الطفل عيسى واقتربت من الأبواب الموصدة .. فمد

الطفل يده ووضعها على الأقفال .. ولشد ما كانت دهشتهم حينما

انفتحت الأبواب ، وخرجت الأسرة لتمشى فى الطريق .

وابتعد الركب عن الديار . حتى وصلوا إلى بلدة الخليل .

فحنحوا إلى مكان يتزودون ببعض الماء حتى إذا أخذت الشمس

تميل نحو المغيب .. غادروا مدينة الخليل .

كان القمر يشرق عليهم من عليائه فى السماء .. يكشف أمامهم

معالم الطريق .. كأنه حارس لهم .. وكانت سالومة تسرى عنهم

وحشة الطريق بأحاديثها العذبة وكنمايتها الحلوة .. وهبت السمات

بديّة صبيّة .. تسطر في سجلات الخلود أروع آيات الله ، فشعر
الراحمون ببعض الأمر ، وآووا إلى شجرة نخيل قائمة عند معطف
الطريق .. يصلون لربهم .

وهكذا مصت العائلة . يرون في مشرق الشمس ومعيتها صورة
لقدرّة الرب ، وكم تعرضت العائلة في طريقها لكثير من المخاطر ..
فهدن أسدان وحشيان يقابلانهم في الطريق ، فارتاعوا لمرآها ، ولكن
الطفل يطر إلى الوحشين ، فإذا هما قد أحيا رأسيهما كأنهما قطتان
أليمان .. يقيمان على باب الكهف لحراستهم .. كم تعرضت الأسرة
لنصوص وللعطش حين يفقد ما معهم من ماء . ولكن انطلق عيسى
استطاع أن يهديهم إلى حيث الماء .

كانت الطريق طويلة شاقة ، وهم يفكرون في أمرهم . لقد تركوا
الأهل والأصحاب إلى ديار عريّة .. ليس فيها بيت للرب يحدونه ،
والرومان هم الرومان .. يسيطرون عليها ، فهل يقدر هم أن يجدوا
في مصر الأمان والسلام ؟ وهل يكون حاكم مصر أرحم من
هيروودس !!؟

قالت مريم تناجي ربها :

- رباه هذه روح منك .. كنتك ألقاها إلى ملاكك .. فلتكن معي
حتى نعود إلى قومننا .

ومضى الجميع في طريقهم إلى مصر . يصعدون الروابي حيا ،
ويختارون الرمال أو يلقون حول الآكام حيا آخر .. يطالعون في

الشمس صورة رائعة لحكمة الرب حين يكون النهار .. ويرون في القمر رسول هداية هم في طريقهم حين يكون الليل .

وشعرت مريم بالسعادة ، وشاركها في سعادتها يوسف وسالومة .. فما هي دى أطلال مدينة (الفرما) تدو لهم من بعيد .. تلك المدينة التي حدثهم عنها أهل النادية .. إذن فقد وصلوا إلى مصر .. فحق لهم أن يسعدوا .

ولأمر ما أراده الرب .. قصوا بلهم حارج المدينة .. فما كادوا يستقروا في مكانهم .. حتى طوّمت بأدهاسهم ذكريات كثيرة .. إلى مصر .. جاء جدهم إبراهيم وروحه سارة ، وفي مر شاء الله ليوسف أن يصبح أميناً على خزانها ، وفي مصر لقي قوم موسى الكثير من الظلم على أيدي فرعون حتى شاء الله لهم أن يرحلوا .

قال يوسف لمريم :

- ما أشبه الليلة بالبارحة .

وقالت سالومة :

وما أشبه فرعون مصر وما كان يفعله بذلك اهيرودس وما يفعله بأرض اليهودية .. ترى هل تكون نهايته كما انتهى فرعون ١٩

وأمسكت سالومة دمعة كبيرة .. كادت تغسل وجهها حين تذكرت أورشليم وبيت لحم !!
ومصت بهم الذكريات ..

ففي مصر . نشأ موسى ، وحفظه الرب من فرعون .. حين أُوحي إلى أمه فوضعت في صندوق وألقت به في اليم ، ثم تلقفه آل

فرعون ، ثم شاء الرب لأُم موسى أن ترصعه وترعاه . حتى شب
فتى ، ليكون بعد ذلك نبياً .

وراحت مريم تستعيد صفحات حياتها .. يوم حملت عشيئة
الرب ، ويوم أنقدها الله وطفها من سكين رجال هيرودس .

وأيقظها من تفكيرها سؤال سالومة :

- فِم تفكرين يا أم سبى .. وهذه قسما وجهك تنطق بذلك ؟!

- لقد تذكرت يا سالومة ما لاقاه موسى على أيدي قومه من
حجود .. وما احتمه من فساد عقولهم وسدهم تعاليم رهم

- إذن فأنت خائفة على إبنك ؟!

- نعم فما عدت أحشى هيرودس . إنما أخوف ما يحفى .. فقد
القوم وحياتهم .

قال يوسف :

إن الرب الذى نضر موسى ومن معه .. إنما هو ناصر لإبنت
يا مريم .

وأشرقت فى نفس مريم سمات الأمل ، وهى تنظر إلى ابها ،
وبور يبعث من وجهه فيصير ما حوله .. كم يصمئها . وكم تحد
فيه عزاء وسلوى .. فتخرج إلى رها . تصلى له وتشكره وتدعوه .

وأشرق صباح اليوم التالى .. وبدأ قرص الشمس يعنوا فى الأفق ..
ومصت العائلة فى طريقها حتى وصلوا (بسطة) .. فاتجهوا إلى شجرة
قائمة هناك .. فجلسوا تحتها وقد يستحلوقهم من شدة الظمأ بعد

أنا انتهى ما معهم من ماء . وترددت على شفتى يوسف المتيسيتين
بضع كلمات وهو ينظر إلى الطفل . وكم كانت دهشتهم أن يروا
سبيل ماء صاف .. والطفل على حافته يمسك بقطعة من حديد ..
يدق بها الأرض فيتدفق الماء . فشرّبوا ليستأنفوا رحلتهم .



(٢٠)

- أمرديس .. أمرديس

بداء يبعث في همس . وطرقات حميمة تفرع الباب حيث
جلست أمرديس مع ذكرياتها .. تتذكر أهلها وديارها .. هناك ..
في مصر .. فأى صوت هذا الذى يهفف في حدر ؟! أيمكر أن
يكون لسيدها الذى تركته مد ساعة يعالج آلام نفسه وحراحها ؟
أيمكر أن يكون صوت الشيطان شمعون الذى يحاول أن يثبها لواعج
نفسه عله يجد عندها آمال حيه ؟!

ومرة أخرى سمعت من يناديها :
أمرديس ... أمرديس .

ترددت الفتاة في خطواتها وهي تنهأ لفتح الباب .. لكنها
ما كادت تفعل حتى طالعت على ضوء الشمعة .. صديقتها راحيل ،
شريكتها في الآلام ورفيقتها في الأسر .. كم سعدت كل منهما بالأخرى
سعادة أوسطهما بعض ما تشعران به من عذاب ومدلة .. حتى خيل
لهما أن القدر قد حظ لهما في لوح مقاديره طريقا واحدة .. فوجدتا
في لقاءتهما وأحاديثهما ما يخفف عن نفسيهما أحراهما .

قالت راحيل وهي تخطوا إلى الداخل بخطوات حذرة :

- طاب مساؤك يا أمرديس .

- بل قولى : طاب صباحك يا راحيل ، فما هي إلا لحظات حتى

يشرق الفجر . ومع ذلك لم تكتحل عياني حتى الآن باليوم .
- أعرف فيمن تفكرين !!

- لكأنك تقرأين مطور أفكارى .. يحبل إلى أنه يهتف بى أن أعود
إليه ، وما يدرى تلك الأعلال التى تقيدنى . ما رلت أذكره
هناك .. على شاطئء النيل .. عند شجرة الحمير الصحمة حيث
اعتديا أن نتقى .. بطعمى الحب ، وأطعمه الأمل ...

- تتحدثين عن ابن عمك تاحور .. حبيب قوادك .. أليس كذلك ؟
- وهل لى أن أفكر فى غيره يا راحيل ؟!

فضحكت راحيل وهى تقول :

- شمعون .. مثلاً ؟!

فأشاحت أمرديس بوجهها وهى تقول .

- هذا الشيطان الكريه .. لعنته الآلهة .

- ولكنه يحبك يا أمرديس . لعل جمالك سحره ، أو صوتك
أسكره !!

فتنهدت أمرديس وهى تقول :

- وهل بقى لى من جمالى ما يأسر هذا الشيطان ؟! يا للآهة دعينا
من هذا الحديث يا راحيل .

- ففيم تتحدث إذن يا أمرديس ؟ عن فتاك ؟ .. ابن عمك

- تعلم الآلهة كم تتوق نفسى إلى رؤيته !!

- !!

- وقومى .. كم أحس إلى مصر حين الزهرة الدابلة إلى الفطرة

البدية .. كم تشتاق بمصرى إلى شربة من ماء نيلها أطمئء بها طمئنى ..
فهل تقدر لى الآلهة أن أعود إلى مصر ؟!

فاعتذلت راحيل وهى تقول :

- ذكرتنى بمصر يا أمرديس .
- إما أذكرها دائما يا رحيل .. أذكرها مع كل نسمة هواء .. مع كل دقة قلب .. مع كل طرفة عين .
- لا بأس عليك يا أمرديس .. فهذا حين الوطن يتردد دائما على لسانك ولكن .. ألا تتذكرين ما حدثتك عنه ذات يوم .. عن سبي ولد فى أرض اليهودية .. فى بيت لحم . ذلك ما حمل سيدك على قتل كثير من الأطفال ؟!
- نعم يا راحيل .. مارلت أذكر تلك الكلمات التى سمعتك برددتها .. تلك الأعية العذبة التى كنت تشدينها فى سكون الليل .. الحمد لله فى الأعالي وبالناس المسرة .. كأنى أحس فى كلماتها فألا حسا .
- إنها تلك الأعية التى كان الرعاة يرددونها . بشرى للناس .
- لكن بحق ربك . أما يرال الناس يتحدثون عن هذا السبي ؟ أم تراهم ظنوا أن هيرودس قتله فىمن قتل من أطفال بيت لحم ؟!
- لا يا أمرديس .. الرب قادر على أن يحفظ بيته .
- فحق الآلهة .. حديثى عن السبي الجديد .. فأنى أشعر كأن هاتفا يهتف بحم للناس على يديه .
- قلت راحيل :

- بل حدثني أنت عن مصر يا أمرديس . كم أتمنى أن أرى بلادكم .
- فستحدين هناك أهلك وقومك .
ومن أجل هذا حدثت الليلة لأبيك سرا . أستودعه قلبك .
- فاذكرى ما شئت .

إن الصعل الذي ينتظره قوما .. بيتا .. في مصر الآن في وطنك
يا أمرديس هو وأمه العذراء ويوسف يعيشون بين قومك ..
أرأيت كم أنا في شوق إلى مصر !!

وراحت راحيل تحكي لأمرديس ما سمعته عن مريم وابنها .. تلك
الأخبار التي رواها أحد التجار القادمين من مصر .

كان هيرودس .. ما زال يحاول أن يعمص عييه ، ولكن القلق
يوجهه . ووحزات قاسية تصاعف آلامه . كم قتل من أبرياء ،
ودمعت عياه .. ولم تكن قد عرفت الدموع من قبل ، وما أقصى
دموع الطامنين على أنفسهم .. أتراها كانت دموع الخوف
مما ينتظره ؟ أم دموع الآلام التي تغتت جسده ؟ أم تراها دموع الندم
الذي يعتصر قلبه ؟! .. فيها هو كذلك سمع من يهتف به .
- يا هيرودس . إن الصعل الذي تبحث عنه ما زال حيا .

وتحرك الرجل في فراشه .. وفتح عييه يحاول أن يرى مصدر
الهاتف . لكنه لم ير شيئا . حتى إذا أغمص عييه .. عاد صوت
الهاتف ياديه :

الطفل الذي تبحث عنه ما زال حيا .. يعيش مع أمه .. في
مصر .

وفزع هيرودس وفتح عييه لعله يرى من يهتف به ، ثم صاح
صيحة مكتومة :

- وأين ؟.. أى مكان فى مصر ؟!

- فى بيت حرب .. فى صعيد مصر ، هناك فى جبل قسقام .

وفكر هيرودس أن يفتح عييه ليرى مصدر الصوت ولكنه حشى
أن يخفى الهاتف ، فقال وما يرأى يعمص عييه :

ومادا أفعل ولست بقادر على النهوض من مكانى ؟!!

- أرسل إليه جنودك ليقتلوه .. فى جبل قسقام .. أرسل جنودك .

صاح هيرودس صيحة تردد صداها فى أرجاء القصر ..
واستيقظت أمرديس وراحيل من أفكارهما وهرعتا إلى سيدهما وقد
تهدح صوته وهو يقول :

سأقتله ، فيذهب الجنود إلى مصر .. ليأتونى برأس الطفل .

أمسكت راحيل وأمرديس عن الكلام .. وسؤال يحيرهما .. كيف
عرف هيرودس حقيقة الأمر ؟ هل سمع حديثهما ؟ وتعلقت به
بطراتهما وما رآه صوته يمزق سكون الليل .

- فيذهب الجنود إلى مصر . إلى جبل قسقام وليأتونى برأس الطفل
وأمه .

وداهلت أمرديس ، وودت لو استطاعت أن تذهب إلى مصر ،
ولتحنر قومها من رجال هيرودس .

(٢١)

ألفت مريم وصحبها الحياة في مصر .. فقد وحدوا فيها الأهل والأصحاب ، وأيما حلوا .. كانت البركة تصحبهم .. وكأنما أراد الله أن يريد من مصر بركة .. لقد بركها يوم وفد إليها إبراهيم وسارة . ويوم شاء ليعقوب وبنيه أن يدخلوها آمين . وها هو ذا يباركها بمريم وعيسى .. يصحبها يوسف .. يتسمون فيها ريح يوسف ويعقوب وإبراهيم .

ومضت الأيام ، والأسرة تنتقل من بلدة إلى أخرى .. ينشر أفرادها الحب والسلام ، ويررعون في قلوب الناس الأمل .. تركوا بسطة إلى المحمة ثم إلى غيرها . حتى ملوا أويس .. هناك عرس فيها عيسى شجرة النلسم .. محصرة أوراقها ورافة طلاها .

وفي مصر .. رأى يوسف ومريم كثيرا من آيات الرب وحكمته . سمات شدية تحمل على أحبتها رسل الحياة إلى ما في الكون ومن فيه .. والليل .. عذب .. يعيص سلسيلا .

لقد كانت مصر لعيسى كتابا مفتوحا .. يطالع بين سطوره آيات ناطقة بقدرة الرب ، وصورا رائعة لحكمته .

ولشد ما أحزهم أن يحدوا مصر .. وقد عث بها الرومان كما عثوا بفلسطين .. ولا شك أنهم شاهدوا وسمموا كثيرا من مظاهر الكفاح وقصص الطولة التي كان المصريون يتعنون بها . ويعلمون إصرارهم

على تطهير أرضهم من الرومان ترى هل كانت مريم تدعو ربه
أن يقدر لمصر من يشر فيها العدل والسلام؟!

صور كثيرة تلك التي رأتها العائلة المقدسة .. وهم يستقرون حيا
أو يتابعون السير أحيين كثيرة .. حتى وصو هاك .. في الخبوت
في جبل قسقام .. على الضفة الغربية ليل .. لعلمهم كانوا يحشون
أعداء هم .. أو لعلمهم أرادوا أن يتعبدوا لربهم ..

حتى كانت ذات ليلة ..

كان كل شيء هادئا .. فالليل قد أرخى أستاره على الكون .. لعله
بعلالة حاككة السواد .. لولا تلك الحجوم التي بدت لامعة في السماء
كأنها مصابيح . تملأ قلوب الناس ب نور الإيمان ، وأحست مريم في
تلك الليلة بحس إلى ديارها وأهلها . كم تحس إلى أهلها .. حتى أولئك
الذين ناصبوها العداء حين عادت تحمل إليهم وليدها . كم تمني أن
تعود إلى أورشليم .. حيث تصنى في بيت الرب .. وإلى حبرون
حيث كان مولدها ومهدا .

قالت سالومة وقد لاحظت ما يطق به وجه مريم :

- أحيين إلى الديار يا أم نبى ؟

- وإلى بيت الرب يا سالومة .

وقومك؟! وهيرودس الذى ما زال يطلب إيسك ؟

دنت ما يحملنى على الصبر . لكنه لا يمنعنى من الحين .

قال يوسف وهو يكتف مشاعره :

- فهل وجدت في مصر إلا كل خير يا مريم ؟

- بل وحدث فيها كل ما يدكرنى بفلسطين .. أرصى .. حتى الرومان وقسوتهم .. كم يدكرنى ددك هيرودس .
- ما أحسب إلا أن المرض قد هذه .
- لكن الرومان ما يرالون يعثون بفلسطين .
- ما أحسب إلا أنا سقى فى مصر طويلا ، حتى يكر عيسى فيكون رسولا إلى هيرودس .. كما كان موسى رسولا لفرعون

لكن مريم أسرعت تقول :

- كم طال بنا المقام فى مصر ، ومارال الخوف يورق تفكيرى .
- أما زلت تحافين على يسك ؟! .. لقد حماه الرب من شر هيرودس .
- هو كذلك يا سالومة .. ولكى أشعر الليلة كأن أمرا يوشك أن يمزق بعض أمتنا فى هذه المغارة .

قال يوسف :

- لعله الظلام الذى يكتف الحمل حولنا .
- ما أحسست فى الظلام بحوف ، فإن نور الإيمان .. يمسح عن قلبى ظلام الليل .

قال يوسف :

- لك الرب يا مريم .. ولجأ قبك بور الأمان كما ملأه بور الإيمان .. فدعى محافك ، واهدنى .. ولتعمض عيناك .. فعل فى ذلك راحة نفسك .

وهذا الجميع يطلبون الراحة . لا مريم فقد بقيت تصارع أفكارها .. حتى ثقل رأسها فامت .

وأشرق صباح اليوم التالى فكانت مريم أسرعهم إلى صوء
النهار .. ثم تبعها سالومة ، وراحتا تتابعان الطريق الممتدة ما بين
الوادي والحبل . حينما هما كذبت أبصرتا قادمًا يسرع نحوهما ،
فأحستا بالخوف .. لكن مريم استردت بعضًا من شجاعتها وهي
تقول :

- لا تخافى يا سالومة .. فإن نفسى تحدثنى كأن بسمة من فلسطين
فى الطريق إليا .. تعطر أنفاسا !!

كان القادم ما زال يسرع فى طريقه .. فما هى إلا خطوات حتى
أبصرت مريم رجلاً يتجه نحوها .. وقبل أن تكبر علامات الإستفهام
أمامها .. كان يوسف قد أقبل عليها .. فإذا مريم تهتف فى فرح :

- إنه يوسا !!

وردد الجميع :

يوسا ؟!

وقالت مريم ويوسف فى صوت واحد :

- نعم . إنه يوسا .. ترى ما أمره ؟ وما الذى حمىه إلى الخفىء
هنا .. إن وجهه تعلوه مشاق الطريق ، فمادًا عساه قادم من أجله ؟!!

كان يوسا واحداً من قوم مريم .. تربطه بيوسف صلة قرابة
ومودة .. ممن عاصروا الأحداث التى مرت بمريم .. وأقبل عليهم
يوسا ، فحياهم ، وابتسم لهم ، وهشواً فى وجهه رغم دهشتهم .
وما كاد الرجل يهدأ قليلاً حتى قال لهم :

- هلموا .. فابتعدوا عن هذه المعارة .

وسكت الجميع ، فقد هزتهم المفاجأة .. أمس أجل هذا جاء الرجل إليهم ؟

قال يوسف :

ماذا تعنى يا يوسا ؟ وكيف حصرت إلى هنا ؟
- دعوا ذلك .. فما حثت لأطارحكم الحديث . لكسى أحذركم من جدد هيرودس .

- جنود هيرودس ؟! صاح ثلاثهم معا :

- هو كذلك وحق موسى .

قالت سالومة :

- يا للرب !! أما يزال الرجل على ضلاله ؟!

وعاد يوسا يقول :

- ما أحسب أن الوقت يطول بكم في هذه المعارة . فأحرموا أمتعتكم .. وحذوا حذركم واتخذوا لكم مقاما آخر .

وأخذ الرجل يحكى لهم ما كان من أمر هيرودس حينما علم بهروب الطفل وأمه ، وكيف أنه جهر جودا بالسلاح ليأتوا إلى مصر .

قال يوسف :

- إنه الشر .. ما يزال يمد للرجل سبيله !!

ورفعت مريم يديها إلى السماء في ضراعة تنادى ربها :
الهم رحمتك فوق مشيئة هيرودس . فهىء لنا النجاة

وقال يوسف :

- هَوْنِي عَلَيْكَ يَا مَرْيَمُ .. فَالْزُبُّ أَكْبَرُ مِنْ هِيرُودُسَ وَجَدَهُ .. هَسَمُوا
فَلْيَصِلْ لِلزُّبِّ وَدَعُوهُ .

وَبَيْنَمَا كَانَتْ مَرْيَمُ وَسَالُومَةُ يَصْنَعُونَ لِلزُّبِّ . بِسْأَلُونَهُ الْخَيْرَ
وَالْأَمَانَ . كَانَ يَوْسَا وَقَدْ أَحْهَدَهُ الْمَسِيرَ وَطَوَّلَ الطَّرِيقَ .. فَرَاحَ فِي
بَاحِيَةِ مِنَ الْمَعَارَةِ .. وَتَوَسَّدَ حَجَرًا يَطْلُبُ الْيَوْمَ .. كَمَنْ كَانَ يَحْمِلُ
حِمْلًا ثَقِيلًا .. ثُمَّ أَزَالَهُ عَنْ كَاهِلِهِ .

وَانْتَهَتْ الْأُسْرَةُ مِنْ صَلَاتِهِمْ ، فَإِذَا يَوْسَا قَدْ مَضَى يُعْطِي فِي يَوْمِهِ ..
يَوْمَ عَمِيقِ يُوْحَى بِمَقْدَارِ مَا كُنْهَ الرَّحْلُ مِنْ .. مَشَاقٍ . لَكِنْ
السَّاعَاتُ مَضَتْ .. وَالرَّحْلُ مَا يَرَالُ نَائِمًا ثُمَّ اكْتَفَمُوا الْحَقِيقَةَ .. لَقَدْ
مَاتَ يَوْسَا .



(٢٢)

خيم السكون على قصره هيرودس .. إلا من أنات تتردد في صدره ، ورغرات حارة تبيس ما يعتمل في نفسه من آلام .. وهذا كل شيء حوله .. حتى دبابلات شموعه .. لم تجد من يسيم ما يحركها .. كل ما حوله راكد حامد .. كم يضايقه هذا السكون .. وهو الذي ألف الحركة والصحيح ، وكم يشعر بالوحشة لكه المرص .. قد أقعده ، كأنما يشده إلى فراشه بوثاق متين رغم ما يحسه في هذا الفراش . حمرا متقددا يلهب ظهره .. وصور كثيرة تتراءى أمام عييه .. حتى يخيّل إليه أنه يطموا فوق بركة أسنة من الدماء .

هاك .. وعلى مقربة من حجرة هيرودس كانت أمرديس .. الفتاة المصرية التي ما تزال تعيش على ذكرياتها . تفكر في العودة إلى ديارها وأهلها .. إلى النيل .. وتركت أمرديس حجرتها إلى شرفتها عليها تجد فيها ريحا من مصر .. كانت لسحوم ما تزال تطل على الكون من عذباتها ، وصيحات الفجر الأولى توقظ العالم بورها اهادىء ، فتكسح أمامها جيوش الظلام ، وأحست أمرديس بالهواء يلامس خديها برفق ، وسلمات رقيقة تهدد صدرها ، وتبعثر حصلات شعرها ، وهي ماضية في أفكارها .

وبدا قرص الشمس يبدو في الأفق ، فأعادت إليها صورة وطها وأهراماتها ونيلها وأهلها ، وفتاها . فيها هي كذلك أحست بيد تربت على كتفها ، فالتفت فإذا هي راحيل .

قالت راحيل وابتهامة تملأ وجهها

- ما أحمل الطبيعة يا أمرديس !!.. انظري إلى قرص الشمس وهو يبدو في الأفق .. وإلى أشعتها وهي تسبح على الكون رداء من الصياء ..

- أما أنا يا راحيل .. فأرى فيها صورة تذكرني بقومي .. لقد كانوا على حق حينما اتحدوا من الشمس إلها لهم .

- والليل .. يا أمرديس !!؟

- ما أعدت مأواه وأحلى مذاقه .. عبده لمصريون ، لما وحدوه من حير على يديه ، وسحلوا مطاهر فئسه وقالوا فيه الكثير من المديح .. هكذا المصريون يا راحيل ..

قالت راحيل وقد سعدت بكلمات صاحبها :

أحين إلى الديار يا أمرديس ؟.. وحق الرب ما قصدت أن أذكرك بجراح نفسك .

فسكتت أمرديس قليلا .. ونطرت إلى السماء بطرة ، فإذا قرص الشمس قد علا في الأفق ، ثم استدارت نحو راحيل وهي تقول :
- ولكن بحق الآهة يا راحيل ماذا عن رجال هيرودس الذين ذهبوا إلى مصر .. من أجل الطفل .. النسي وأمه ؟!

قالت راحيل :

لقد مات الحبود جميعا .. لم يصلوا إلى حلل فسقام .. أجهدهم المسير ، وحطمهم طول الطريق الرب شاء أن يحفظ السي وأمه
- فادعي الرب يا راحيل أن يحفظ فتاى تاحور حتى يلتقى في مصر .

م تكذ أمر ديس تنهى من كنماتها حتى سمعت صيحة مكتومة ..
وَصَوَاتِ الخدم . يسرعون الخطأ في فرع وهم يعلنون .
لقد مات هيرودس .



(٢٣)

استيقظت مريم مكررة كماداتها ، وخرجت إلى الحبل .. تعيش
صدرها بسماته النقية ، وتنظر في صفحة الوحود صوء القمر ، وهو
يسرع بخطواته إلى العالم ، فإذا لساها يهتف :

- ما أعظم حكمة الرب !!.. هذا الكون بما فيه ومن فيه .. آيات
على قدرة الرب . وهذه الحياة بخيرها وشرها . مقدرة بمشيئة
الرب .. وإذا كان الرب قد شاء أن يعقب الليل بالنهار والنهار بالليل ،
ويشرق النور بعد الظلام .. فلا شك أن عداله اقتضت أن يملأ قنوب
الناس بالأمل .. وأن يعمر بؤر عدالته ، وفيص رحمة كل ما في
الكون .

وأحست مريم في تلك الصورة وهي تهتف بهذه الكلمات كأنها
تعبر عما يجيش في صدرها .. إنها اليوم تشعر بسعادة كبيرة .

قالت مريم كمن تحدث نفسها :

- لا بأس فبحر سى الإنسان .. إنما يعيش على الأرض .. خطوات
خطواتنا . تتردد أنفاسنا في صدورنا بمشيئة الرب . الرب هو الذى
رسم بكل موحود حظه في الحياة . وإذا كان يوما قد كتب له الرب
أن يهى حياته في هذا المكان .. فهذه حكمته ..

فيما هى كذلك .. أقل عليها يوسف وقال : وإبتسامة تملأ
وجهه :

ما أحسب إلا أنك تتجهين بقلبك إلى فلسطين ، وما تزالين على
عهده وأمدك في بيت الرب .

- هو ما تقويه يا يوسف ، فهل يقدر لنا الرب ذلك ؟!
قال يوسف :

الرب قد استحباب دعائك يا مريم ، وأمرني ملاكه أن يعود إلى
ديارنا .

- وهيرودس ؟!

- لقد مات .

وحكى يوسف لمريم من أمره مع ملاك الرب وهو يهتف به :
يا يوسف .. قم فخذ اصبى وأمه ، وادهب إلى أرض إسرائيل ،
فقد مات طالبوا نفس اصبى .

وفرحت مريم وسالومة وصلوا للرب .. واستعدوا للرحيل إلى
فلسطين .



(٢٤)

أرأيت كم يسعد الإنسان الخائف حين تزول عنه مخاوفه ؟ .. كم يسعد الغريب حين يثوب إلى أهله ودياره بعد طول فراق ؟ .. هكذا كانت مريم ويوسف وسالومة وهم يودعون أرض مصر .. حيث اتخذوا طريقهم إلى فلسطين .

ولكن كان الركب قد غادر فلسطين ذات يوم في ظلمة الليل والخوف .. إلا أنهم اليوم يعودون .. إلى أرضهم .. في وضح النهار ونور الإطمئنان .. يحركهم الحنين واللهفة ، وتحذوهم عناية الله .. مضى الجميع في طريقهم ، وذكريات كثيرة طيبة عن مصر .. تملأ نفوسهم وصور الأماكن والقرى التي زاروها .. وذكريات الأيام التي كانت مريم تشارك أترابها في غزل الصوف .. أو تمضي معهم في حقول القمح تجمع سنابله .. لتستطيع أن تقيم حياتها وابنها .. أليست هذه هي الحياة ..

وتذكرت مريم فيما تذكرته ذلك اللص الذي كان ينوي السوء بهم ، ولكن بركة ابنها دفعت به إلى الهداية ، فأصبح حارسا لهم .. بعد أن كاد يؤذيهم .. وتذكرت مريم ذلك الرجل أفلوم الذي رآهم ذات يوم ، وهو عائد من حقله عند الغروب فأخذهم إلى داره .. يحميهم البرد والمطر .. كم سعدت به زوجته وسعدوا بها حيث شفيت .. ببركة ابنها الطفل .. كم تذكر تلك القرية الهادئة القائمة

على النيل .. تل بسطة حيث شاهدت احتفال المصريين بنيلهم .. ثم تذكر يوم جاءها من يخبرها بأن حاكم المدينة يطلبهم .. فهربوا إلى حقل قمح .. أفسح الرب لهم فيه مكانا فلم يصل إليهم جنود الحاكم .. إنها تذكر أيضا مدينة جناح التي استقبلها أهلها بالترحيب والماء والزاد .. ثم هي تذكر تلك المدينة العريقة أون حيث غرس فيها ابنها عصى يوسف ، فغدت شجرة .. اخضرت أغصانها ، إنها تذكر رحلتها إلى الجنوب حيث جبل فسقام ، حيث شاء الرب لقريهم يوسا أن يدفن هناك ليكون لهم ذكرى .

يا لها من أحداث كثيرة .. تلك التي عاشتها الأسرة .. كم كان بعضها مرا مرارة العلقم ، وبعضها حلو حين كان الرب يتجلى عليهم .. وهم بذلك وذاك راضون .. ومريم أسعد ما تكون بابتسامتها ، وصحبة يوسف .

ما هي إلا أيام قضتها الأسرة في الطريق .. حتى وصلوا إلى مدينة أورشليم .. فإذا هي كما تركوها .. حتى وجوه الناس ما تزال علامات الخوف بادية عليهم .. صحيح لقد مات هيروودس .. ولكن جاء بعده واحد من أبنائه .. أرخيلائوس .. أترأه خيرا من أبيه ؟ أم على عهده لم تعظه نهاية سلفه !!

قالت مريم ليوسف :

- ما أحسب إلا أن هذه الديار لم تعد لنا !!

وقالت سالومة :

- ولكنها أرضنا .. أرض أبائنا وأجدادنا .. فهلا تنعم فيها بالأمان

كما نعمنا في أرض مصر ؟!

قال يوسف :

- لها الرب مصر .. وليحفظها الله من ظلم الرومان .. كم أحس بتلك المودة التي تربطني بها وبأهلها ..

وقالت مريم :

- ما زلت أشعر بالخوف حتى ليخيل إلى أن هيرودس قد أوصى ابنه أرخيلائوس شرًا بنا .

ثم التفتت إلى يوسف وقالت :

- إن هاتفا يهتف بي ألا نبقي هنا

- فهل نعود إلى مصر ؟

- لو كان الرب يريد لنا البقاء في مصر لما أمرنا بالرحيل منها .

- فأى وجهة نولى وجهنا ؟ فهل كتب علينا الترحال ؟ ثم رفع

يوسف وجهه إلى السماء وقال :

- يارب .. بحق موسى وإبراهيم .. نحن نسير على هدى منك ..

نمضي في الطريق التي رسمتها لنا .. نستضيء بنور إيمانك ، فهلا يارب

منحتنا سبيل الرشاد ؟

قالت مريم

- إنما أحس كأن هاتفا يهتف بي أن نواصل المسير إلى .. الناصرة ..

فإنها بعيدة عن سلطان أرخيلائوس ولعلنا نبدأ هناك عند قوم نعرفهم .

قال يوسف :

- ليكن ما تشائين يا مريم .

ومضى الجميع في طريقهم إلى ... الناصرة .. كم كانوا سعداء

وهم ماضون في طريقهم .. ونسمات الآمال الصافية تترأى لهم ،

وصور المستقبل المشرق تداعب أحلامهم .. كانوا يطالعون في الكون
صورا عديدة لقدرة الرب ، ويتذكرون ما مضى عليهم من أحداث
وذكريات ، حتى إذا وصلوا إلى الناصرة وجدوا كل شيء كما
تركوه .. وكان حانوت يوسف النجار ما زال قائما في أول الشارع
كأنه في انتظاره وهناك استأنف يوسف عمله كنجار .. يشاركه
عيسى العمل والكفاح . وينعمان سويا بما تهبه لهما مريم من
سعادة ، وتمضي بهم قافلة الحياة حتى يحقق الرب لهم ما قدره في
لوح مقاديره وليكون لهم بعد في الوجود ذكرى .. وفي التاريخ
صفحات يتدارسها الخلف عن السلف .. ذكرى على مدى السنين .

رقم الإيداع : ٩٣/١١٣٦٨

الترقيم الدولي : 9 - 1161 - 04 - 977 I.S.B.N

